العلة النحوية لنصب خبر (كان) واسم (إن) وما جرى مجراهما

إعداد

د. ندى عبد الله الضاهر

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

كلية اللغات

جامعة المدينة العالمية

ملخص البحث:

تدخل (كان) على الجملة الاسمية فترفع المبتدأ وتنصب الخبر، وتدخل (إن) فتنصب المبتدأ وترفع الخبر.

وقد تعلل اللغويون لذلك بعلل تتفاوت بين البساطة والتعقيد.

وسعى البحثُ إلى استقراء اعتلالات النحاة، ودراستها ونقدها، ومحاولة الوقوف على علل أخرى مستندة للدلالة، وذلك مِن خلال عرض لآراء العلماء في هذه المسألة من جهة، ومن جهة أخرى دراسة نماذج لدخول (كان) و(إن) في القرآن الكريم، وتلمس علة اختلاف حركة إعرابها.

ومِن النتائجِ التي توصَّل لها البحثُ: تقرير أنَّ المرفوع هو غاية الدلالة المنشودة وعليه نصب ما هو أقل أهمية، وهو ما أفضى له البحث التطبيقي الذي ضمنته البحث: عدم قبول تشبيه النحاة لـ(كان) وأخواتها و(إن) وأخواتها بالأفعال الحقيقية، وما ترتب عليه من تعليلات ثانوية، واعتبار أن هذا الالتفاف لا يخدم الدلالة والتي هي الغاية المنشودة، وأن من الجيد النظر إلى هذه الأفعال والحروف نظرة خاصة والاستغناء عن محاولة سحبها على غيرها.

الكلماتُ الدِّلالية:

العلة- النحوية- نصب- خبر (كان)- اسم إن.

Summary

Kan (كان) begins a nominal sentence that makes the subject carry dhamma (ُ) and predicate carry fatha (-َ). The linguists gave deferent reasons: simple and complex. The research tracked, studied and criticized the faults of the grammarians. He tried to find other defects related to semanticism through presenting the scholars' opinions about this issue, and also study other samples of the intrusion of kan and ann in Qur'an, and looking for the reasons for the various vowels (haraka) in its parsing. Of the results is that the word with dhamma (-ُ) on it is the highest connotation sought for, and the one with the fatha vowel (-َ) on it is less important and that is what the applied research has included. The scholars' assimilation of kan and its group and ann and its group to the real verbs and what resulted from that is rejected. This kind of manipulation does not serve the connotation which is the desired goal. In addition, the verbs and these particles require a better consideration and to not to confuse them with the others parts of speech.

مقدِّمة:

التعليل من طبيعة الإنسان، فيه إعمال لعقله، وهو نتاج إطالة مراقبة الشيء ومحاولة استكناه سببه، ولما ارتبطت العربية بالقرآن الكريم توسعت دراستها، وعمد اللغويون إلى محاولة الكشف عن الأسباب وراء بِنيتها الصرفية والنحوية، مما نتج عنه تعليل العلماء للكثير من الظواهر اللغوية، وربما تأثر التعليل اللغوي بعلم الكلام في الفترة التي ظهرت فيها الفلسفة الكلامية، فأصبح أصلًا من أصول النحو، وتوسعت دراسته.

وقسم العلماء العلل النحوية تقسيمات مختلفة ثنائية وثلاثية:

فقسمها ابن السراج إلى: العلة، وعلة العلة.

وقسمها ابن مضاء إلى العلل الأوائل، والثواني، والثوالث.

وهو ما اعتبر نظيرًا لتقسيم الزجاجي الذي يعتبر تقسيمه هو الأشهر بين التقسيمات؛ فقسمها إلى عِلَل تعليمية، وعلل قياسية، وعلل جدلية نظرية، وعَدَّ منها الدينوري أربعًا وعشرين علة، والتي يمكن إدراجها تحت التقسيمات الرئيسية.

ورفض آخرون التعليل رفضًا تامًّا؛ كالخفاجي، وابن الأثير.

ومنهم مَن رفض العلل الثوالث؛ كابن جني، وشوقي ضيف.

ودخول (كان) و(إن) على الجمل الاسمية يحدث تغييرًا في إعراب كل من المبتدأ والخبر، والذي بدل النحويون اسم المبتدأ ليكون اسمهما، وربما اعتمدوا هذا المصطلح باعتبار الدخول على الجملة الاسمية، وأنها لا بد أن تبتدر باسم، وتجنبًا لمصطلح المبتدأ الذي سبقه في هذه الأحوال فعل أو حرف، ويُبقي البصريون الخبر على تسميته، بينما يسميه الكوفيون: حالًا.

ووضع العلماء عللًا لتبرير نصب (إن) لاسمها، وإذا ما التزمنا تقسيم الزجاجي للعلل وجدناها تندرج تحت كونها عللًا تعليمية، تتمثل بتعليلهم اطراد هذا الإعراب في كلام العرب، وعللًا قياسية كاعتلالهم بشبهها للفاعل والمفعول، وعللًا جدلية نظرية كاعتلالهم بأنَّا لو نصبنا خَبَر (إن) لجرى الْمَفْعُول مجْرى الْفَاعِل فَكَانَ يجوز إضماره، أو اعتلالهم بأنها خالفت الفعل

في العمل فيما بعدها للدلالة هذا على حرفيتها.

والعلة النحوية ليست ملزمة فما هي إلا محاولة من النحويين لاستنباط السبب الكامن وراء الظاهرة.

وقد سُئل الخليل عن العلل التي يعتل بها في النحو. فقيل له: (عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟

فقال: "إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما اعتللته منه، فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست، وإن تكن هناك علة له فمَثَلي في ذلك مَثَل رجل حكيم دخل دارًا مُحكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة، والحجج اللائحة، فكلَّما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا لعلة كذا وكذا، وبسبب كذا وكذا... فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار"[(١)].

وقد نظرت في هذه العلل التي عللها العلماء لنصب خبر (كان) واسم (إن)، ورأيت أن من الممكن أن نستنبط عللًا أخرى موافقة لبعض اعتلالاتهم أو مخالفة، مستندة أساسًا في استنباطها إلى الدلالة وهي الغاية المنشودة والتي تسعى لها الأصوات والتراكيب الصرفية والنحوية والإعراب، وهو ما تَنَبَّه له اللغويون؛ يقول العكبري: «الْإِعْرَاب دخل الْكَلَام ليفرق بَين الْمعَانِي من الفاعلية والمفعولية وَالْإِضَافَة وَنَحْو ذَلِك»[(٢)].

وذكر السيوطي: «أن الأصل في الإعراب أن يكون للفرق بين المعاني»[(٣)].

(١) الإيضاح في علل النحو- لأبي القاسم الزجاجي (٣٣٧هـ)- تحقيق مازن مبارك- دار النفائس، ١٩٩٨/ ٦٦- ٦٧.

(٢) مسائل خلافية في النحو- لأبي البقاء؛ عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي، محب الدين (٦١٦هـ)، تحقيق: محمد خير الحلواني- دار الشرق العربي- بيروت- الطبعة: الأولى، ١٩٩٢م/ ٩٥.

(٣) المطالع السعيدة في شرح الفريدة- في النحو والصرف والخط- لجلال الدين السيوطي- تحقيق: نبهان ياسين حسين- =

والتي ربما انحرف اللغويون وانصرفوا إلى علل منطقية؛ يقول الدُّكتور مُحَمَّد الحلواني عند تعريفة للعلة: «يُراد بالعلّة النّحوية تفسير الظاهرة اللغوية، والنفوذ إلى ما وراءها- وشرح الأسباب التي جعلتها على ما هي عليه، وكثيرًا ما يتجاوز الأمر الحقائق اللغوية، ويصل إلى المحاكمة الذهنية الصِّرف»(١).

ولذلك؛ فقد عمدت في هذا البحث إلى استقراء نصوص من القرآن الكريم لدخول (كان) وأخواتها و(إن) وأخواتها على الجملة الاسمية، باعتباره النص الأوثق لغة، ومحاولة الوقوف على علة نصب خبر (كان) واسم (إن) استنادًا إلى الدلالة، مستهدية بما وضعه العلماء من قواعد وأصول للعلة النحويه، وبآراء العلماء في هذه المسألة والمسائل المتعلقة بها.

وقد قُسِّمَ البحثُ إلى مقدِّمةٍ وضحتُ بها الخطوطَ العامة للبحث، وخاتمةٍ اشتملت على نتائج البحث وتوصياته، وفصلين: أَوَّلهما في العلل النحوية وعلة نصب اسم (إن) وخبر (كان). وثانيهما: في تعليل البحث لنصب اسم (إن) وخبر (كان).

مشكلة البحث:

فَكَّر العلماء بوجود علة نحوية وراء الظواهر الإعرابية، وعللوا للكثير منها كالتعليل لنصب خبر (كان) واسم (إن)، ويحاول البحث إعادة النظر في هذه التعليلات واستنباط علل أخرى استنادًا إلى الدلالة اللغوية، والتي تعتبر المقصد الرئيس التي تسعى لها التركيبات الصرفية والنحوية والعلامات الإعرابية.

=

الجامعة المستنصرية- العراق– ١٩٧٧/ ١-٢٥١.

(١) أصول النحو العربي- مُحَمَّد خير الحلواني- الأطلسي- الرباط، ١٩٨١م/ ١٠٨.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في إيجاد علل عقلانية تخدم الدرس النحوي، ودحض كل ما يُبعد اللغة عن هدفها المنشود، وهو الدلالة.

أسئلة البحث:

- ما معنى العلة؟ وما أنواعها؟
- ما أحوال دخول (كان) وأخواتها و(إن) وأخواتها على الجملة الاسمية؟
- بماذا اعتل العلماء لنصب خبر (كان) واسم (إن)؟ وما مدى معقولية وجدوى هذه التعليلات؟
- ما العلل الممكن اقتراحها لنصب خبر (كان) واسم (إن) استنادًا إلى الدلالة؟

هدف البحث:

يسعى البحثُ إلى استنباط علة نصب خبر (كان) واسم (إن) في حال دخولها على الجملة الاسمية.

الدراسات السابقة:

في العلل النَّحوية دراسات كثيرة تأصيلية متمثلة بالكتب المتخصصة بعلل النَّحو «العلل النحوية» لقطرب، و«علل النحو» للمازني، و«الإيضاح في علل النحو» لأبي القاسم الزجاجي، و«علل النحو» لأبي الحسن مُحَمَّد بن الوراق، وغيرها كثير، وتطبيقية تضمنتها كتب النحو كافة.

منهج البحث:

يفرض البحث نظرية مفادها أنَّ علة نصب اسم (إن) وخبر (كان) يعود إلى توجيه السامع إلى أهمية المرفوع باعتباره محط الدلالة، ويحاول البحث إثبات فرضيته، وذلك باستعراض آراء العلماء في هذه المسألة وما حولها ونقدها، ومِن ثَمَّ تحليل نصوص من القرآن الكريم، ومحاولة استنباط علل أخرى.

إجراءاتُ البحث:

- بيان معنى العلة وأنواعها حسب تقسيم العلماء لها.
- دراسة أحوال دخول (كان) وأخواتها و(إن) وأخواتها على الجملة الاسمية.
- دراسة ونقد لعلل العلماء بما يتعلق بنصب خبر (كان) واسم (إن).
- استقراء نصوص من القرآن الكريم ومحاولة استنباط علل لنصب خبر (كان) واسم (إن) استنادًا إلى الدلالة.

الفصل الأول

العلة النحوية وعلة نصب اسم (إن) وخبر (كان)

يدور الحديث في هذا الفصل حول العلة النحوية من حيث تعريفها ونشأتها وتقسيمها وآراء العلماء حولها، وما اعتل به النحويون من علل لنصب اسم (إن) وخبر (كان).

١-١ المبحثُ الأول: في العلل النحوية

يتحدث هذا المبحث عن العلة (تعريفها ونشأتها وتقسيمها وآراء العلماء فيها).

١-١-١ المطلب الأول: تعريف العلة ونشأتها:

العلة لغة: جمع ابن فارس معاني العلة في ثلاثة:

الأول: العلل هو الشربة الثانية.

والثاني: العائق يعوق، قال الخليلي: «العلة حدثٌ يَشغل صاحبه عن وجهه، ويقال: اعتله عن كذا، أي: اعتاقه، قال: فاعتله الدهر، وللدهر علل».

والثالث: العلة: المرض، وصاحبها: مُعتل، قال ابن الأعرابي: «علَّ المريض: يعل فهو عليل»[(١)].

وفي الاصطلاح النَّحويّ:

عرفها الجرجاني (٨١٦هـ) بقوله: «العِلَّة لغة عبارة عن معنى يحلُّ بالمَحَلِّ فيتغير به حال المحل بلا اختيار، ومنه سُمِّي المرض علة؛ لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوَّة إلى الضعف...، وهي ما يتوقف عليه وجود الشَّيء ويكون خارجًا مؤثرًا فيه»[(٢)].

(١) معجم مقاييس اللغة- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي؛ أبو الحسين (٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون- دار الفكر، عام النشر- ١٩٧٩م/ ٤- ١٤.

(٢) التعريفات- علي بن مُحَمَّد بن علي الزين الشريف الجرجاني (٨١٦هـ)، تحقيق جماعة من العلماء- دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى- ١٩٨٣م/ ١٥٤.

الكليات- معجم في المصطلحات والفروق اللغوية- أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي؛ أبو البقاء الحنفي =

ومن المحدَثين عرَّفها الدُّكتور مازن المبارك بـ: «الوصف الذي يكون مظنَّة وجه الحكمة في اتخاذ الحكم»(١).

وعرَّفها الدُّكتور علي أبو المكارم: «بأنها السبب الَّذي تحقق في المقيس عليه فأوجب له حكمًا، وتحقق في المقيس- أيضًا- فألحق به فأخذ حكمه»(٢).

ويذهب فريق من الباحثين المحدثين إلى أنَّ نشأة العلَّة تعود إلى تأثر النَّحو بعلم الكلام(٣)؛ كإبراهيم مصطفى(٤).

ويرى بعضهم ارتباط نشأتها بالقرآن الكريم إضافة إلى كونها من تأثر النحو بعلم الكلام؛ كعلي أبو المكارم(٥).

أما الدكتور مازن المبارك فيذهب إلى «أن مِن طبيعة الإنسان أن يسأل عن السبب، ويستقصي العِلَّة، ومن طبيعة العقل: أن يَتتبع الجزئيات، ويجمع ما تشابه منها؛ ليُطلق عليها حكمًا عامًّا فيصل بالظاهرة إلى القاعدة العلمية، ولذلك فليس غريبًا أن يكون السُّؤال عن العِلَّة قديمًا، وأن يكون التّعليل مرافقًا للحكم النَّحوي منذ وُجد، وغرض التَّعليل: هو أن يظهر خضوع الظاهرات لقواعد العلم وأحكامه»(٦).

=

(١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش- محمَّد المصري- مؤسسة الرسالة/ ٥٩٩.

التوقيف على مهمات التعاريف- زين الدين محمَّد المدعو (١٠٣١هـ)، الناشر: عالم الكتب ٣٨- القاهرة- الطبعة: الأولى-١٩٩٠م، ١/٢٤٥.

(١) النحو العربي، العلة النحوية: نشأتها وتطورها- لمازن المبارك- دار الفكر- دمشق- ١٩٧٤م/ ٦٩-٧٠.

(٢) أصول التفكير النحوي- علي أبو المكارم- دار غريب/ ١٥٤.

(٣) وقد تبنى هذا الرأي الدكتور تمام حسان. (انظر مناهج البحث في اللغة- تمام حسان- مكتبة الأنجلو المصرية- ١٩٩٠/ ١٨١)، ثم رجع عنه وقال: "إن العلل النحو مبنية على الحس، وتكشف عن نتيجة الاستقراء، وتسعى لإظهار وجه الحكمة المنطقية من الظاهرة اللغوية. (الأصول- تمام حسان- عالم الكتب-٢٠٠٠/ ١٩٠.

(٤) إحياء النَّحو- ابراهيم مصطفى- الهنداوي/ ٢٢- ٣٢.

(٥) أصول التفكير النحوي- لأبي المكارم/١٥٠.

(٦) النحو العربي، العلة النحوية: نشأتها وتطورها- لمازن المبارك- دار الفكر- دمشق-١٩٧٤/ ٦٩-٧٠.

١-١-٢ المطلب الثاني: تقسيم العلة وآراء العلماء فيها:

وقسّم النُّحاة العلل، وبينوا أنواعها وخصائصها؛ فمنهم مَن جعلها على أربعة وعشرين نوعًا[١]، ومنهم مَن جعلها على ثلاثة أضرب[٢]، ومنهم مَن يرى أن اعتلالات النحويين صنفان[٣].

فابن السَّرَّاج (ت٣١٦هـ) يرى أنَّ اعتلالات النَّحويين على ضربين: ضرب منها هو المؤدي إلى كلام العرب؛ كقولنا: كل فاعل مرفوع، وضرب آخر يُسَمَّى عِلَّة العلَّة، مثل: أن يقولوا: لم صار الفاعلُ مرفوعًا، والمفعول به منصوبًا؟ ولم إذا تحركت الياء والواو وكان ما قبلها مفتوحًا قُلبتا ألفًا؟ وهذا ليس يكسبنا أن نتكلم كما تكلمت العرب، وإنَّما نستخرج منه حِكمتها في الأصول الّتي وضعتها، وتبين بها فضل هذه اللّغة على غيرها من اللغات»(٤).

أمّا الزّجّاحي فقد ذكر في كتاب «الإيضاح في علل النّحو»: أن علل النّحويين على ثلاثة أضرب: «علل تعليمية، وعلل قياسية، وعلل جدلية نظرية»[٥].

فأمّا التّعليمية: «فهي الّتي يتوصّل بها إلى تعلّم كلام العرب؛ لأنا لم نسمع نحن ولا غيرنا كلَّ كلامها منها لفظًا، وإنَّما سمعنا بعضًا فقسنا عليه نظيره...، ومن هذا النّوع من العلل قولنا: إنَّ زيدًا قائم، إن قيل: بم نصبتم زيدًا؟ قلنا: بإنّ؛ لأنّها تنصب الاسم وترفع الخبر؛ لأنّا كذلك علمناه ونعلمه»[٦].

(١) الاقتراح في أصول النحو- عبد الرحمن بن أبي بكر؛ جلال الدين السيوطي- المحقق: عبد الحكيم عطية- علاء الدين عطية- دار البيروتي، دمشق، ١٤٢٧/ ٩٨ نقلًا عن الدنيوري.

(٢) الإيضاح في علل النَّحو/ ٦٤.

(٣) الاقتراح، السيوطي/ ١٠١.

(٤) الأصول في النحو- أبو بكر مُحَمَّد بن السري بن سهل النحوي، المعروف بابن السراج (٣١٦هـ)، **المحقق**: عبد الحسين الفتلي– مؤسسة الرسالة، لبنان– بيروت/ ١- ٣٥.

(٥) الإيضاح في علل النَّحو/ ٦٤.

(٦) الإيضاح في علل النَّحو/ ٦٤.

وأمَّا القياسية «فأن يقال لمن قال: نصبت زيدًا بـ(إنَّ) في قوله: إنَّ زيدًا قائمٌ: ولِمَ وجب أنْ تنصب (إنَّ) الاسم؟

فالجواب في ذلك: أن يقول: لأنَّها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي إلى مفعول، فحُملت عليه، فأعملت أعماله لما ضارعته، فالمنصوب بها مشبّه بالمفعول لفظًا، والمرفوع بها مشبّه بالفاعل لفظًا، فهي تُشبه من الأفعال ما قُدِّم.

وأمَّا النّوع الثّالث من العلل عند الزّجاجي فهي العلّة الجّدلية النّظرية «فكل ما يعتل به في باب (إنَّ) بعد هذا مثل أن يقال: فمن أي جهة شابهت هذه الحروف الأفعال؟ وبأيِّ الأفعال شبهتموها؟ أبالماضية، أم المستقبلة، أم الحادثة في الحال، أم بالمتراخية، أم المنقضية بلا مهلة؟ وحين شبهتموها بالأفعال لأيِّ شيء عدلتم بها إلى ما قدّم مفعوله على فاعله، نحو: ضرب زيدًا عمرو، وهلا شبهتموها بما قُدّم فاعله على مفعوله؛ لأنّه هو الأصل وذاك فرع ثانٍ؟ فأي علة دعتكم إلى إلحاقها بالفروع دون الأصول، وأي قياس أطرد لكم في ذلك؟...»[(١)].

ويقسم ابن مضاء العلل على ثلاثة أقسام، وهي علل أُوَل، وعلل ثوانٍ، وعلل ثوالث، ولم يَقبل من هذه العلل إلَّا العلل الأول؛ «لأنَّ العلل الأول بمعرفتها تحصل لنا المعرفة».

أمّا التّقسيم الأخير من العلل فقد ذكره الجليس الدّينوري في كتابه «ثمار الصناعة»[(٢)]، وذكره السيوطي في «الاقتراح»، إذ قال: «إن اعتلالات النّحويين صنفان: علّة تطرد على كلام العرب، وتنساق إلى قانون لغتهم، وعلّة تظهر حكمتهم، وتكشف عن صحة أغراضهم ومقاصدهم في موضوعاتهم، وهم للأولى أكثر استعمالًا، وأشد تداولًا، وهي واسعة الشعب، إلَّا أنَّ مدار المشهورة منها على أربعة وعشرين نوعًا، وهي علّة سماع، وعلّة تشبيه، وعلّة

(١) الإيضاح في علل النّحو/ ٦٥.

(٢) ثمار الصناعة في علم العربية- للجليس الدينوري (٤٩٠هـ)- تحقيق ودراسة: الدكتور مُحَمَّد بن خالد الفاضل- جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، 1411هـ.

استغناء، وعلّة استثقال، وعلّة فرق، وعلّة توكيد، وعلّة تعويض، وعلّة نظير، وعلّة نقيض، وعلّة حمل على المعنى، وعلّة مشاكلة، وعلّة معادلة، وعلّة قرْب ومجاورة، وعلّة وجوب، وعلّة جواز، وعلّة تغليب، وعلّة اختصار، وعلّة تخفيف، وعلّة دلالة حال، وعلّة أصل، وعلّة تحليل، وعلّة إشعار، وعلّة تضاد، وعلّة أولى»[١].

ومن العلماء مَن رفض العلة، كابن سنان الخفاجي؛ فقال: «إنما يجب اتباعهم فيما يحكون عن العرب ويرونه... ولذا كان المصيب منهم المحصل من يقول: هكذا قالت العرب، من غير زيادة على ذلك»[٢].

ومنهم ابن الأثير (٦٣٧هـ)، وذلك حين صرح بـ«أن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد، حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك، ولَمَا كان العقل يأباه ولا ينكره، فإنه لو جعل الفاعل منصوبًا، والمفعول مرفوعًا قَلَّد في ذلك كما قَلَّد في رفع الفاعل ونصب المفعول»[٣].

واعتبر ابنُ جني العلل الثواني مجرد شرح وتفسير وتتميم للعلة الأصلية... أما العلل الثوالث فتمحل لا طائل تحته، وتزيُّد لا جدوى منه، وليست هي في الواقع سوى جوانب من النظر العقلي الخالص، وشواهد على تأثر رجال النحو برجال الكلام»[٤].

ويرى فؤاد حنا ترزي أنَّ العلل الثّوالث تمحُّل لا طائل تحته وتزيُّد لا جدوى منه، وليست هي في الواقع سوى جوانب من النظر العلمي الخالص، وشواهد على تأثر رجال

(١) الاقتراح/ ٩٨- ٩٩.

(٢) سر الفصاحة– أبو مُحَمَّد؛ عبد الله بن مُحَمَّد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (٤٦٦هـ)– دار الفكر- ٢٠٠٦/ ٣٣.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر– ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن مُحَمَّد (٦٣٧هـ)، **المحقق**: أحمد الحوفي، بدوي طبانة– دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة- القاهرة/ ٩٥.

(٤) الخصائص– أبو الفتح؛ عثمان بن جني الموصلي (٣٩٢هـ)– الهيئة المصرية العامة للكتاب- **الطبعة**: الرابعة، ١/ ١٧٣.

النحو برجال الكلام»[1].

وكذلك اعتبرها شوقي ضيف تَزَيُّد لا جدوى فيه[2].

١-٢ المبحث الثاني: علة نصب خبر (كان) واسم (إن) حسب آراء اللغويين

تَعَلَّل العلماء لنصب خبر (كان) ورفع اسم (إن) بعلل كثيرة، وإذا اعتمدنا تقسيم الزجاجي للعلل في كتابه «الإيضاح في علل النّحو»، حيث قَسَّمها إلى ثلاثة أضرب: (علل تعليمية، وعلل قياسية، وعلل جدلية نظرية)، يمكننا تقسيم العلل التي ذكرها العلماء في نصب اسم (إن) وخبر (كان) إلى:

أولها: علة أولية تعليمية:

ومما اعتل به العلماء- ويدخل في هذا الباب- اعتلالهم بأن نصب خبر (كان) واسم (إن) هو نهج العرب في كلامهم، وأخذناه عنهم، واستشهد الزجاجي في بيانه لهذا النوع من العلل بعلة نصب (إن) كمثال على هذا النوع من العلل يقول: «ومن هذا النَّوع من العلل قولنا: إنَّ زيدًا قائم، إن قيل: بم نصبتم زيدًا؟ قلنا: بإنَّ؛ لأنَّها تنصب الاسم وترفع الخبر؛ لأنَّا كذلك علمناه ونعلمه»[3].

ثانيها: العلة القياسية:

وأيضًا اتخذ الزجاجي من نصب خبر (إن) مثالًا على هذا النوع من العلل يقول: «فأن يقال لمن قال: نصبت زيدًا بإنَّ في قوله: إنَّ زيدًا قائمٌ: ولِمَ وجب أنْ تنصب (إنَّ) الاسم؟

فالجواب في ذلك أن يقول: لأنَّها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي إلى مفعول، فحُملت عليه، فأعملت أعماله لما ضارعته، فالمنصوب بها مشبّه بالمفعول لفظًا، والمرفوع بها مشبّه

(١) في أصول اللغة والنَّحو- فؤاد ترزي- دار الكتب، بيروت/ ١٣٦- ١٣٧.

(٢) مقدمة الإيضاح/ ٨.

(٣) الإيضاح في النحو، للزجاجي/ ٦٤.

بالفاعل لفظًا، فهي تشبه من الأفعال ما قُدّم»[١].

وأطلق العلماء على هذه العلة تسميات أخرى؛ كالعلة الثانوية، وفي تقسيم أدق: علة قياس، أو علة نظير.

ويُعلل ابن السراج التعليل نفسه يقول: «وجميع هذه الحروف مبنية على الفتح مشبهة للفعل الواجب؛ ألا ترى أن الفعل الماضي كله مبني على الفتح، فهذه الأحرف الخمسة تدخل على المبتدأ والخبر فتنصب ما كان مبتدأ وترفع الخبر؛ فتقول: إن زيدًا أخوك، ولعل بكرًا منطلق، ولأنَّ زيدًا الأسد، فـ(إنَّ) تُشبه من الأفعال ما قدم مفعوله، نحو: ضرب زيدًا رجل»[٢].

ويعلل ابنُ السَّرَّاج مشابهة (إنَّ) وأخواتها الفعل أنَّها تدخلها نون الوقاية، كما تدخل الفعل فتقول: إنَّني كما تقول: ضربني[٣]، والعلّة علّة مشابهة.

وعلل الوراق لنصب (أنَّ) شبهها (بأن) يقول: «وإنما وجب النصب بـ(أن) وأخواتها؛ لأن (أن) الخفيفة مشابهة لـ(أن) الثقيلة في الصورة والمعنى، فمن حيث وجب أن تنصب تلك الاسم نصبت هذه الفعل، وما ذكرناه من أخواتها محمول عليها، ووجه الحمل: أن هذه الحروف- أعني (أن وكي وإذن)- تقع للمستقبل كوقوع (أن) له، فلما كانت مشابهة لـ(أن) في إيجابها لكون الفعل المستقبل، نصبت لا غير، كنصب (أن)»[٤].

ويقول الوراق عن (إن): «إِنَّهَا حُرُوف تخْتَص بالاسم، ولَا تدخل على الفِعْل، وَبَعضهَا يحدث معنى فِي الاسم، وأواخرها كأواخر الْفِعْل الْمَاضِي، فَلَمَّا شاركت الْفِعْل فِي لَفظهَا ولزومها الاسم- وَجب أَن تعْمل عمله، وَالَّذِي أوجب لَهَا أَن تعْمل عملين: الرَّفْع

(١) الإيضاح في النحو، للزجاجي/ ٦٤.

(٢) الأصول، لابن السراج ١/٢٣٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) علل النحو- أبو الحسن؛ مُحَمَّد بن عبد الله الوراق- دار النشر: مكتبة الرشد- الرياض/ السعودية- ١٩٩٩م- الطبعة: الأولى- تحقيق: محمود جاسم مُحَمَّد الدرويش/١٩٠.

وَالنّصب: أنها عبارَة عَن الْجمل، وَلَيْسَ لَهَا معنى فِي الْعبارَة عَن الاسم الْمُفْرد، فَلَمَّا اقْتَضَت اسْمَيْنِ- وَجب أن تعْمل...

وَلَا يَخْلُو عَملهَا فيهمَا من أحد ثَلَاثَة أَشْيَاء: إِمَّا أَن ترفعهما جَمِيعًا، أَو تنصبهما جَمِيعًا، أَو ترفع أَحدهمَا وتنصب الآخر، فَلم يَجز رفعهما جَمِيعًا؛ لِأَنَّهَا قد جرت مجْرى الْفِعْل فِي الْعَمَل، وَالْفِعْل لَا يجوز أَن يرفع فاعلين بِغَيْر اشْتِراك وَلَا تَثْنِيَة، فَلَو رفعت الاسمين لخالفت مَا شبهته بِهِ، وَهُوَ الْفِعْل، وَلم يجز أَن تنصبهما جَمِيعًا؛ لِأَن الْفِعْل الَّذِي شبهت بِهِ لَا يجوز أَن ينصب بِغَيْر فَاعل يكون مَعَه، فَلَو نصبنا بهَا الاسمين لَصَارَتْ بِمَنْزِلَة فِعل نصب مَفْعُوله بِغَيْر فَاعل، وَهَذَا لَا يُوجد فِي الأَصْل وَالْفرع، وَأولى أَلا يُوجد فِيهِ، فَلم يبْق من الْأَقْسَام إِلَّا أَن تعْمل فِي أَحدهمَا رفعًا، وَفِي الآخر نصبًا؛ ليَكُون الْمَرْفُوع كالفاعل، وَيكون الْمَنْصُوب كالمفعول، وَإِنَّمَا وَجب أَن يكون الْمَرْفُوع مُؤَخرًا والمنصوب مقدمًا»[1].

وفي (كان) يقول: «إن هَذِه الْأَفْعَالَ لما كَانَت عبارَة عَن الْجمل- وَجب من حَيْثُ كَانَت أفعالًا أَن يجْرِي حكم مَا بعْدهَا كحكمه بعد الْأَفْعَال، وَلَو أبطلنا عَملهَا لحصل بعْدهَا اسمان مرفوعان من غير عَطف وَلَا تَثْنِيَة، وَهَذَا لَا يُوجد لَهُ نَظِير فِي الْأَفْعَال الْحَقِيقِيَّة، فَوَجَبَ أَن ترفع أحد الاسمين؛ ليَكُون الْمَرْفُوع كالفاعل، وتنصب الثَّانِي ليَكُون كالمفعول، فَلهَذَا وَجب أَن ترفع الأسماء وتنصب الْأَخْبَار.

وَالدَّلِيل على أَنَّهَا أَفعَال: وجود التَّصَرُّف فِيهَا، واتصال الضَّمِير بهَا الَّذِي لَا يتَّصل إِلَّا بالأفعال؛ كَقَوْلِك: كَانَ يكون فَهُوَ كَائِن ومكون، كَمَا تَقول: ضرب يضْرب فَهُوَ ضَارب، وَتقول: كنتُ، كَمَا تَقول: ضربتُ.

فَهَذَا دَلِيل قَاطع على أَنَّهَا أَفعَال»[2].

أمَّا في كتب النحو فقد قَرَّر سيبويه من بداية الباب في تسميته أن (كان) فعل يلزمه

(١) علل النحو، للوراق/ ٢٣٥.

(٢) علل النحو، للوراق/ ٢٤٥.

فاعل ومفعول، هما بمثابة الشيء الواحد، فأسمى بابه (هذا باب الفِعل الذي يتعدَّى اسم الفاعل إلى اسم المفعول واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد)[١]، وفي (إن) يقول: «هذا باب الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها عمل الفعل فيما بعده»[٢].

ثالثها: العلَّة الجدلية النَّظرية:

ومما تعلل به النحاة، ويدخل تحت هذا النوع: اعتلالهم بأنا لو نصبنا خَبَر (إن) لجرى الْمَفْعُول مجْرى الْفَاعِل، فَكَانَ يجوز إضماره، وَلَو أضمرناه لم يخل من أَن يكون الْمُضمر غَائِبًا أَو متكلمًا أَو مُخَاطبًا، وإضمار الْغَائِب مستتر فِيمَا عمل فِيهِ، كَقَوْلِك: قَامَ زيد، فَلَو قيل لَك: أضمر زيدًا، لَقلت: قَامَ، فَلَو جَازَ أَن ترفع (إِن وَأَخَوَاتهَا) الاسم الَّذِي يَليهَا لوَجَبَ أَن يسْتَتر ضَمِيره فِيهَا إِذا كَانَ غَائِبا، وَيظْهر تَاء الْمُتَكَلِّم، نَحْو قَوْلك: (إنت)، لَو تكلم بِهِ، فلكان ذَلِك يُؤدي إِلَى اللَّبْس بـ(أَنْت) وَإِلَى إِضْمَار فِي الْحُرُوف، والحروف لَا يجوز الْإِضْمَار فِيهَا؛ لِأَنَّهَا جوامد لَا تتصرف، وَإِنَّمَا جَازَ الْإِضْمَار فِي الْأَفْعَال؛ لِأَن فِي أوائلها حروفًا تدل على الضَّمِير، وَحمل مَا لَا دلَالَة فِيهِ على مَا فِيهِ الدلَالَة؛ لاشتراكها فِي الفعلية. فَهَذَا الَّذِي يجوز فِي الْأَفْعَال دون الْحُرُوف والأسماء.

أو اعتلالهم بأنها خالفت الفعل في العمل فيما بعدها؛ ليدل هذا على حرفتيها؛ يقول الوراق: «قيل: لم يكن على كَونهَا حرفًا دلَالَة، إِذْ كَانَ لَفظهَا لفظ الْفِعْل، وعملها عمله، وَترك التَّصَرُّف فِي الشَّيْء لَا يدل على أَنه حرف؛ لِأَن من الْأَفْعَال مَا لَا تتصرف، نَحْو: نعم وَبئسَ، فَلَو رفعت (إِن) الاسم لم يُعلم أَنها حرف، فَجعل عَملهَا فِيهَا بعْدهَا مُخَالفًا لعمل الْفِعْل؛ ليدل بذلك على أَنَّهَا حرف، وَلَوْلَا مَا ذَكَرْنَاهُ لَكَانَ حَقّهَا أَن ترفع الاسم وتنصب

(١) الكتاب؛ لسيبويه؛ أبو بشر، عمرو بن عثمان، (ت١٨٠هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، الطبعة الأولى، ١٣١٦هـ، ١/ ٤٥.

(٢) الكتاب ٢/ ١٣١.

الْخَبَر؛ لتجري مجْرى الْفِعْل الَّذِي شبهت بِهِ»[1].

وفي الحقيقة: إنَّ تشبيه هذه الأفعال والحروف بالأفعال الحقيقية، وتشبيه المبتدأ والخبر بالفاعل والمفعول أوقعنا بإشكاليات كثيرة أثناء تطبيقها أدى إلى محاولتهم الالتفاف عليها، كقولهم: إنه لو رفعنا خبر (إن) لاشتبهت بالفعل، وهذا الاشتباه يُؤدي إلى إمكانية إضمار الفعل تشبيهًا بالفاعل، وإمكانية اتصاله بتاء المخاطب فتكون (إنت)! أو اعتلالهم بأنها خالفت الفعل في عمل ما بعدها للدلالة على حرفيتها.

١- الفصل الثاني: تعليل البحث لنصب اسم (كان) وخبر (إن):

يناقش هذا الفصل فرضية البحث نظريًّا وعمليًّا، والتي فحواها أن لرفع اسم (كان) وخبر (إن) علة تتعلق بالدلالة، وهي أن المرفوع هو الغاية الدلالية المقصودة التي يسعى لها التركيب النحوي، وهو المقصود بالدلالة الزمنية المكتسبة من إدخال (كان) أو حتى دلالة النفي بـ(ليس)، ودلالة (إن) وأخواتها، فمثلًا في قولنا: «كان محمدٌ مجتهدًا»، يكون القصد الإخبار عن اجتهاد مُحَمَّد لا غيره، أما في جملة مثل: «إنَّ محمدًا مجتهدٌ»، فالقصد هنا بيان حال مُحَمَّد كونه مجتهدًا، وقد سماه الكوفيون حالًا، ولو قلنا: «كان مجتهد محمدًا» لكان القصد في الكلام بيان أن محمدًا مجتهد، كما لو قلنا: «إن المجتهد مُحَمَّد» كان المعنى أنه هو المجتهد لا غيره، فالمرفوع سواء كان اسم (كان) أو خبر (إن) هو الدلالة المنشودة الذي يسعى لها تركيب الجملة وإعرابها.

وقبل إثبات الفرضية يجب عليَّ الإجابة عن السؤال الذي يمكن أن يسأل فيما يتعلق بالجملة قبل دخول (كان) وأخواتها و(إن) وأخواتها، وهو: هل محط الدلالة قبل دخول (كان) وأخواتها و(إن) وأخواتها المبتدأ أم الخبر؟

والجواب على هذا: أن العلماء اعتبروا الخبر هو الدلالة المنشودة؛ يقول ابن السراج في حديثه عن المفعول به الثاني: «وإنما الفائدة في المفعول الثاني، كما كان في المبتدأ والخبر

(١) علل النحو، للوراق/ ٢٣٥.

الفائدة في الخبر لا في المبتدأ»[١]، ولكنهم في موضع آخر اعتبروا أن التقديم للأهمية؛ يقول سيبويه: «كأنهم يُقَدِّمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعلى، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم»[٢].

وفي خلاف النحويين حول العامل في رفع المبتدأ: اعتبر الكوفيون أن المبتدأ والخبر يترافعان، فيرفع كل منهما الآخر.

واحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا: إن المبتدأ يرتفع بالخبر والخبر يرتفع بالمبتدأ؛ لأنَّا وجدنا المبتدأ لا بدَّ له من خبر، والخبر لا بدَّ له من مبتدأ، ولا ينفك أحدهما من صاحبه، ولا يتم الكلام إلا بهما، ألا ترى أنك إذا قلت: «زيد أخوك» لا يكون أحدهما كلامًا إلا بانضمام الآخر إليه؟ فلما كان كل واحد منهما لا ينفك عن الآخر، ويقتضي صاحبه اقتضاءً واحدًا عَمِل كل واحد منهما في صاحبه مثل ما عمل صاحبه فيه؛ فلهذا قلنا: إنهما يترافعان، كل واحد منهما يرفع صاحبه. ولا يمتنع أن يكون كل واحد منهما عاملًا ومعمولًا.

واعترض عليهم بأن العامل لا يدخل على عامل[٣]، واختار السيوطي هذا المذهب[٤].

أما سيبويه فيرى أن المبتدأ يُرفع بالابتداء، والخبر يُرفع بالمبتدأ[٥].

واعترض عليه بأن المبتدأ اسم، والاسم لا يعمل.

ورأى آخرون أن كلًّا من المبتدأ والخبر مرفوع بالابتداء، ومعنى الابتداء: التنبيه والتَّعْرية

(١) الأصول ١٨١، لابن السراج.

(٢) الكتاب، لسيبويه/ ١- ١٥.

(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين؛ كمال الدين؛ أبو البركات الأنباري، (ت٥٧٧هـ)؛ تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، ١٩٦١م، (١/ ٤٤)، مسألة (٥)، أوضح المسالك إلى ألفيَّة ابن مالك؛ جمال الدين بن هشام الأنصاري، (ت٧٦١هـ)، ومعه كتاب هداية السالك إلى تحقيق أوضح المسالك؛ تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الخامسة، ١٩٦٦م/ (١/ ١٣٧).

(٤) المطالع السعيدة في شرح الفريدة/ جلال الدين السيوطي١/ ٢٦٥.

(٥) الكتاب لسيبويه١/ ٢٧٨.

عن العوامل.

واعترض عليه بضعف علة الابتداء؛ باعتبارها علة معنوية لا تتعدى لغيرها.

في حين رأى ابن السراج علَّة رفع المبتدأ والخبر، بأن المبتدأ مرفوع بالابتداء، وأن الخبر مرفوع بهما، أي: الابتداء والمبتدأ(١).

ووافقه المبرد في أنَّ العامل في رفْع الخبر هو الابتداء والمبتدأ؛ إذ قال المبرد: «فأما رفْع المبتدأ، فبالابتداء، ....والابتداء والمبتدأ يَرفعان الخبر»(٢)، وأيده الأنباري(٣).

وفي تفنيد هذه الآراء ونقدها نجد أن رأي الكوفيين من الناحية الدلالية سليم، إلا أن هذا الرأي يدور في فلك نظرية العامل، وربما ما قالوا ذلك إلا فرارًا من القول بأن الرافع الابتداء.

كما أنني لا أوافق مَن قال من البصريين على أن المبتدأ هو رافع الخبر؛ لأن معنى ذلك أن المبتدأ هو المسند إليه، وهو مقصد الدلالة، كما هو الفاعل، وهذا ليس صحيحًا، فللخبر ما للمبتدأ من نصيب في المعنى.

وربما اقترب الأنباري من ذلك في تعليله لرفضه رأي سيبويه في أن الابتداء يعمل في المبتدأ، والمبتدأ يعمل في الخبر، يقول: «وهذا- أيضًا- ضعيف، (أي: الرفع على الابتداء)؛ لأنه متى وجب كونه عاملًا في المبتدأ وجب أن يعمل في خبره، (يقصد الابتداء)؛ لأن خبر المبتدأ يتنزل منزلَةَ الوَصْفِ، ألا ترى أن الخبر هو المبتدأ في المعنى، كقوله: «زيد قائم، وعمرو ذاهب»، أو مُنَزَّل منزلته، كقوله: «زيد الشمسُ حُسْنًا، وعمرو الأسدُ شدةً»، أي: يتنزل منزلته، وكقولهم: «أبو يوسف أبو حنيفة»، أي: يتنزل منزلته في الفقه؛ قال الله تعالى:

(١) الأصول لابن السراج ١/ ٥٢.

(٢) المقتضب، أبو العباس؛ مُحَمَّد بن يزيد المبرد، (ت٢٨٥هـ)؛ تحقيق: مُحَمَّد عبد الخالق عضيمة، دار التحرير للطباعة والنشر (٢/ ٤٩، ٤/ ١٢٦).

(٣) الإنصاف ١/ ٣٩.

﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦] ، أي: تتنزّل منزلتهن في الحرمة والتحريم؛ فلما كان الخبر هو المبتدأ في المعنى، أو منزَّلًا منزلته تنزل منزلة الوصف؛... كان تابعًا للمبتدأ في الرفع؛ كما تتبع الصفة الموصوف، وكما أن العامل في الوصف هو العامل في الموصوف، سواء كان العامل قويًّا أو ضعيفًا، فكذلك ههنا»[(١)]، وما يعنينا هو أنه اعتبر الخبر هو المبتدأ في المعنى أو منزلًا منزلته، كما هو الوصف للموصوف، وهذا يؤيد ما قلته من أن دلالة كل من المبتدأ والخبر متساوية.

أما الرأي الأخير- وهو رأي ابن السراج والمبرد والأنباري في أن علة رفع الخبر المبتدأ والابتداء- فهي كعلة الكوفيين تدور في فلك نظرية العامل، والأنباري بعدما أيد الابتداء، وبَرَّر له بأن المبتدأ والخبر كالشيء الواحد، وبعد تعليله عدم جواز أن يكون المبتدأ العامل في الخبر لم يستطع تجاوز نظرية العامل، وعاد ليشمل المبتدأ علة لرفع الخبر مع الابتداء؛ يقول: «الابتداء يعمل في الخبر عند وجود المبتدأ، لا به، كما أن النار تُسَخِّنِ الماء بواسطة القِدْر والحَطَبِ، فالتسخين إنما حصل عند وجودهما، لا بهما؛ لأنَّ التسخين إنما حصل بالنار وحدها، فكذلك ههنا، الابتداء وحده هو العامل في الخبر عند وجود المبتدأ، إلا أنه عامل معه؛ لأنه اسم، والأصل في الأسماء أن لا تعمل»[(٢)].

في الحقيقة: إن القول بعلة الابتداء للرفع هو أنسب الأقوال، وما منع العلماء من القول فيه إلا اعتمادهم في وضع القواعد وتوصيف النحو على نظرية العامل، وكل مِن تعليل الكوفيين وبعض البصريين الذين قالوا بأن علة رفع الخبر الابتداء والمبتدأ تَصب في الوادي نفسه، فكلاهما تؤدي إلى أن المرفوعين كليهما عمدة، وهو ما قَرَّره النحاة، وأنهما محط الدلالة، إلا أنهم لم يستطيعوا التخلص من نظرية العامل، أما رأي سيبويه ومَن جرى مجراه في أن علة رفع الخبر هو المبتدأ، فمعناه أن المبتدأ هو المقصود في الدلالة، فهو المسند إليه كما

(١) المرجع السابق.

(٢) الإنصاف ١/ ٣٩.

هو الفاعل، وهذا لا تؤيده الدلالة.

٢-١ المبحث الأول: علة نصب خبر (كان) واسم (إن)- (الجانب النظري)

وبالعودة إلى إثبات الفرضية نجد أنه من الممكن الاستشهاد بعدد من الشواهد على صحتها:

• إعراب الكوفيين الخبر المنصوب في باب (كان): حالًا، وقد رجح بعض المحدثين هذا الرأي في كَوْن المنصوب حالًا[١]، والحال- كما هو معلوم- ليس عمدة في الكلام، وعليه، فإن هذا يدعم بقوة ما أذهب إليه من أن المعني بدلالة (كان) وأخواتها هو الاسم المرفوع دون الخبر، وهذا يمكن سحبه على (إن) وأخواتها.

• أن اللغويين اعتبروا الرفع يشير إلى عمدة الكلام، وفي «شرح الرضي على الكافية» ينقل عن القرطبي قوله: «المرفوع عمدة الكلام كالفاعل والمبتدأ والخبر، والمنصوب في الأصل فضلة، ولكن يشتبه به بعض العمد؛ كاسم (إن) وخبر (كان)»[٢].

إن تقرير العلماء بأن الرفع علامة إسناد، من الممكن أن نستدل من خلاله على أن خبر (كان) واسم (إن) المنصوبين ليسا عمدة في الكلام، وأن المعني في الكلام للمرفوع سواء في اسم (كان) أو خبر (إن)، وهذا يغني عن استثنائهما من القاعدة.

• اعتبر إبراهيم مصطفى الفتحة ليس علامة إعراب، وإنما هي الحركة التي يستحب العرب الوقوف عليها لخفتها، وحاول البرهنة على ذلك بطرق عديدة[٣].

واعترض عليه بمجيء اسم (إن) منصوبًا مع أنه مسند إليه[٤]، وقد برر لذلك أن

(١) في النحو العربي: نقده وتحديده- مهدي المخزومي- دار الرائد- بيروت- الطبعة الثانية، ١٩٩٦/ ١٧٦- ١٨٢.

(٢) شرح الرضي لكافية ابن الحاجب- مُحَمَّد بن الحسن الإستراباذي السمنائي النجفي الرضي- حسن بن مُحَمَّد بن إبراهيم الحفظي- يحيى بشير مصطفى- جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية/ ١٤١- ١- ٢٠٠.

(٣) إحياء النحو- إبراهيم مصطفى- الهنداوي/ ٥٥.

(٤) ظاهرة الإعراب- أحمد سليمان ياقوت- دار المعرفة الجامعية- بيروت- ٧٧.

الأصل في اسم (إن) الرفع، ويؤيده ورود شواهد قرآنية وشعرية؛ منها: قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ﴾[١]، وأنه يعطف عليه بالرفع.

وبرر لنصبه بأن العلماء توهموا ذلك لكثرة اتصاله بضمير، وذلك أنه أكثر ما يكون موصولًا، وضمير الرفع لا يتصل بالاسم؛ لذلك فالضمير المتصل لا بد أن يكون ضمير نصب، ولكثرة استخدامه توهموا النصب حتى في الاسم المنفصل!

ويمكن الرد على هذا بأن (إن) حرف أشبه الفعل، فلماذا لا تتصل به ضمائر الرفع؟

إن اعتبار إبراهيم مصطفى الفتح ليس علامة إعراب، ومحاول تبريره لذلك، وإن كنت لا أوافقه الرأي إلا أنه يستدل به على وجود إشكالية في مسألة نصب اسم (إن) وخبر (كان)، ومحاولة العلماء إيجاد حلول لهذه الإشكاليات.

• نصب ما أصله مبتدأ وخبر عند دخول ظن وأخواتها دليل على كونه ليس المقصود في الكلام، والتأكيد على أن المرفوع- وهو فاعل الظن- هو محط الدلالة.

ويمكننا لمح المعنى الذي ذهبت إليه في كلام سيبويه عند حديثه في علة عدم الاقتصار على مفعول واحد في (ظن) وأخواتها؛ يقول سيبويه: «وإنما منعك أن تقتصر على أحد المفعولين ههنا: أنك إنما أردت أن تبين ما استقر عندك من حال المفعول الأول يقينًا كان أو شكًّا، وذكرت الأول لتعلم الذي تضيف إليه ما استقر له عندك من هو. فإنما ذكرت (ظننت) ونحوه لتجعل خبر المفعول الأول يقينًا أو شكًّا، ولم ترد أن تجعل الأول فيه الشك، أو تقيم عليه في اليقين»[٢].

وقوله: «تبين ما استقر عندك» يدل على أن محط الدلالة هو الفاعل، فالمفعول الأول يبين حال ما استقر عند الفاعل.

(١) طه: ٦٣.

(٢) الكتاب **لسيبويه** ١/ ٤١.

ومن المهم جدًّا التنبه على أن سيبويه وصف المفعول به الثاني بأنه بيان لحال الأول، وهو رأي الكوفيين في الخبر من أنه حال، والحال فضلة.

ويُعلل ابن السّرّاج مشابهة خبر المبتدأ بالمفعول الثاني؛ لأنَّ كليهما موضع فائدة، والعلّة علّة مشابهة إذ يقول في تعليل ذلك: «والمخاطبُ والمخاطِبُ في المفعول الأول سواء، وإنما الفائدة في المفعول الثاني، كما كان في المبتدأ والخبر الفائدة في الخبر لا في المبتدأ، فلما كانت هذه الأفعال إنما تدخل على المبتدأ والخبر والفائدة في الخبر والمفعول الأول هو الذي كان مبتدأ، والمفعول الثاني هو الذي كان الخبرَ بقيَ موضعُ الفائدةِ على حالهِ... فلما كانت هذهِ الأفعال إنما تدخل على المبتدأ والخبر والفائدة في الخبر، والمفعول الأول هو الَّذي كان مبتدأ، والمفعول الثاني هو الّذي كان الخبر بقي موضع الفائدة على حاله»[(١)].

وقال المبرد في تعليل ذلك أيضًا: «وإنما امتنع (ظننت زيدًا) حتى تذكر المفعول الثاني؛ لأنها ليست أفعالًا وصلت منك إلى غيرك، إنَّما هو ابتداء وخبر»[(٢)].

ويُعلل ابن السَّرَّاج بأنَّ مِن خواص هذه الأفعال: إلغاؤها، أي: إبطال عملها بتوسط الأفعال بين مفعوليها؛ لأنَّ هذه الأفعال ضعفت بالتوسط والتأخير، فينازعه عاملان، أي: الفعل والابتداء، فالمتكلم بالخيار في إعمال أحد العاملين، إلا أنَّ الإلغاء في التأخير أحسن، نحو: «زيدٌ عَلِمتُ قائِمٌ»، و«زيدٌ قائِمٌ علمتُ»، يقول في تعليل ذلك: «ويجوز لك أن تلغي الظن إذا توسط الكلام أو تأخر، وإن شئتَ أعملته؛ تقول: «زيدٌ ظننتُ منطلقٌ»، و«زيدٌ منطلقٌ ظننتُ»، فتلغي الظن إذا تأخر، ولا يحسن الإلغاء إلا مؤخرًا، فإذا ألغيت فكأنَّك قلت: زيدٌ منطلقٌ في ظني، ولا يحسن أن تلغيه إذا تقدم»[(٣)]، والعلة علة تضاد.

وفي موضع آخر يُعلل ابن السّرَّاج تعليلًا دقيقًا بأنَّه يجوز إلغاء (ظنَّ) وأخواتها مما ينصب

(١) الأصول لابن السراج ١/ ١٨١.

(٢) المقتضب للمبرد ٣/ ٩٥.

(٣) الأصول لابن السراج ١/ ١٨١.

مفعولين، لأنَّ معناها ليس معنى التعدي المفهوم مما ينصب ثلاثة مفاعيل، كما هو مع (أعلمت)، وهو يحتاج إلى مفعول أول يقع عليه الحدث؛ ولأنَّ الكلام يبقى غير مؤتلف، إذ يقول في تعليل ذلك: «فإذا قلت: علمت وظننت وما أشبه ذلك فهي أفعال غير واصلة، فإذا قلت: «أعلمت» كانت واصلة، فمن هنا حسن الإلغاء في (ظننت وعلمت)، ولم يجز إلغاء (أعلمت)؛ لأنَّك إذا (ظننت) فإنما هو شيء وقع في نفسك لا شيء فعلته، وإذا قلت: «أعلمت» فقد أثرت أثرًا أوقعته في نفس غيرك، ومع ذلك فإنَّ: «ظننت وعلمت» تدخلان على المبتدأ والخبر، فإذا ألغينا بقي الكلام تامًّا مستغنيًا بنفسه، تقول: «زيدًا ظننتُ منطلقًا»، فإذا ألغيت: «ظننت» بقي زيد ومنطلق، فقلت «زيد منطلق»، ثم تقول: «ظننت»، والكلام مستغن، والملغى نظير المحذوف، فلا يجوز أن يلغى من الكلام ما إذا حذفته بقي الكلام غير تام، ولو ألغيت (أعلمت وأريت) من قولك: «أريتُ زيدًا بكرًا خيرَ الناس»، و«أعلمت بشرًا خالدًا شرَّ الناس»، والملغى كالمحذوف، لبقي: (زيد بكر خير الناس)، فـ(زيد) بغير خبر، والكلام غير مؤتلف ولا تام»[(١)].

والحقيقة: أن الدلالة في تقديم فعل الظن ترتكز على الفاعل، وأن المفعول به لم يقع، ففي جملة مثل: (ظننت زيدًا مجتهدًا)، زيد ليس مجتهدًا، فالدلالة المقصودة هي ظنك أنت باعتبارك فاعلًا.

وفي حال توسط فعل الظن يرجع الأمر للدلالة في إلغاء العمل أو إثباته، فإن ارتكز المعنى على ظنك تعمل النصب، وإن كانت الدلالة المقصودة في الجملة الاسمية أهمل إعمال هذه الأفعال.

أما في حال تأخير الظن في قولنا: «زيد مجتهد ظننت» مما يستوجب إلغاء عمل (ظن)، فإن الدلالة المقصودة الإخبار عن اجتهاد زيد، وربما اقترب من اليقين، فاجتهاد زيد متحقق، والله أعلم.

(١) الأصول لابن السراج ١/ ١٨٧.

• تقرير بعض النحاة أنه حتى مع كف (إن) عن العمل، فإن الضغط يكون على آخر الجملة: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣]، يعني: خبر (إن) المرفوع، وهو ما يؤكد فرضية البحث أيضًا، أما في (إنما) غير العاملة فيكون الضغط على الأول[١]، وهو المبتدأ المسند إليه، وقد تحدثت سابقًا عن محط الدلالة في الجملة الاسمية، وارتحت إلى أنها في المبتدأ والخبر كليهما على حد سواء.

• وفي نقل حركة الفاعل إلى المفعول في الفعل المبني للمجهول باعتباره نائب فاعل دليل جيد، فتجاهل الفاعل والتركيز على المفعول المقصود في الدلالة ورفعه- يؤيد ما ذهبتُ إليه، وربما غفل التوليديون عن هذا مع تركيزهم على المعنى الدلالي؛ فاعتبر الدكتور خليل عمايرة أن جملة مثل: (قطع الرجل الشجرة)، و(قطعت الشجرة)، و(انقطعت الشجرة)- أن الشجرة في الأحوال الثلاثة موضوع وقوع الحدث، واعتبر أن التحليل النحوي لا يكشف عن المعنى الدلالي، ولكنها لزمه وينتهي دورها عند تحديد الحركة الإعرابية، ثم يأتي دور البنى العميقة[٢].

والحقيقة: أن المعنى الدلالي يرتكز في الجملة الأولى على الرجل، وفي الثانية على الشجرة، وفي الثالثة على الشجرة أيضًا، وهو المرفوع.

ويؤكد كلامي قول إبراهيم مصطفى في كتابه «إحياء النحو» أن النحاة لم يفرقوا بين الفاعل ونائب الفاعل، وجعلوهما في باب واحد[٣]، وهو ما نتج عن فكرة تقسيم النحو إلى أبواب حسب التشابه في العمل لا الدلالة.

وبالتالي يمكننا التخلص من فكرة أن المبتدأ والخبر يُشبه الفاعل والمفعول، وما ترتب على هذه الفكرة من تعليلات متكلفة؛ كاعتلالهم بأن علة نصب اسم (إن) مخالفتها للفعل، أو أنه اذا رفعنا الاسم شابه الفاعل فجاز حذفه!

(١) التطور التحوي للغة العربية- براجستر ١٣٥- ترجمة: رمضان عبد التواب- مكتبة الخانجي- ١٩٩٤م.
(٢) المسافة بين النظرية والتطبيق، خليل عمايرة، دار وائل للنشر- عمان- الأردن- الطبعة الأولى، ٢٠٠٤/ ٣٠.
(٣) إحياء النحو/ ٤٤.

إن النظر لـ(كان) باعتبارها فعلًا ناقصًا، و(إن) حرفًا مشبهًا بالفعل، وسحب عليه أنَّ ما بعدها مُشابه للفاعل والمفعول يُعتبر متكلفًا جدًّا.

وربما كان من الأفضل النظر إلى هذه الأفعال والحروف العاملة نظرة تتعلق بها دون سحبها على غيرها، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الإشكاليات التي نتجت عن محاولة إدراج هذه الأفعال والحروف تحت مباحث بعينها منها:

١- اعتبار فندريس أن الجملة الفعلية ليس لها علاقة بفعل الكون في معظم اللغات[١]، ووصف هذه الأفعال بأنها أفعال مساعدة «أُفرغت من معناها، واستعملت استعمال الأدوات التي ليس لها معان تامة مستقلة، وإن بقي لمعانيها أثر واضح في الاستعمال، وفي العربية أفعال أفرغت من معانيها، واستعملت استعمال الأدوات، وأخرى استعملت استعمال الأدوات وما زالت على معناها»[٢]، ويضرب لها فندريس مثالًا بـ(على) التي تستخدم فعلًا بمعنى، وتكتب (علا). وتستخدم أداة بمعنى فوق، وتكتب (على)، كما يضرب لها مثالًا بـ(عن) فهي تستعمل اسمًا بمعنى: ناحية وسحب، ويستشهد لها بقوله:

ولقد رآني للرماح دريئة مِن عن يميني تارة وشمالي[٣]

ونلاحظ أن فندريس يقترب في تقريره أن الجملة الفعلية ليس لها علاقة بفعل الكون، وأن هناك أفعالًا أفرغت من معناها، واستعملت استعمال الأدوات التي ليس لها معان تامة مستقلة، وإن بقي لمعانيها أثر واضح في الاستعمال مِن وصف (كان) وأخواتها أفعالًا ناقصة تدخل على الجملة الاسمية، وتبقى اسمية، وهو حال الحروف في (إن) وأخواتها التي عملت النصب والرفع أو النصب فقط على رأي بعض النحاة، ولكنه مَثَّل له بالحروف، ولعل هذا التمثيل يستفاد منه في (إن وأخواتها) خاصة، فهي حروف أَشبهت الفعل وعملت.

(١) اللغة، لفندريس، ترجمة: الدواخلي والقصاص، مكتبة الأنجلو، ١٩٥٠م/ ١٦٤.

(٢) اللغة، لفندريس ٧٩- ٨٠.

(٣) اللغة، لفندريس٧٩- ٨٠.

في حين رأى دكتور شوقي ضيف: أنَّ هناك خللًا كبيرًا دخل على الجملة الفعلية وفقَ رأي البصريين، ويرى وجوبَ حذْف هذا الباب من دراسة النحو على هذا النحو، والأخذ برأي الكوفيين[١]، في اعتبار (كان) وأخواتها فعلًا لازمًا، وما اعتبره البصريون خبرًا اعتبره الكوفيون حالًا، وإن كنت لا أوافق شوقي ضيف الرأي إلا أن هذا الخلاف يؤيد ما أردت من وجوب توصيف هذه الأفعال والحروف توصيفًا خاصًّا.

٢- اختلاف اللغويين في بعض هذه الأفعال التي تنتمي إلى (كان) وأخواتها؛ كاختلافهم في إدخال (ليس) في أخوات (كان) مع أنها للنفي، و(كان) للاستقبال، و(ليس) للحاضر، و(كان) للماضي، وقد عَدَّها الفارسي حرفًا في أحد قوليه[٢].

واختلفوا في تقديم خبرها؛ فمنعه المتأخرون من البصريين والكوفيين، وجَوَّزه المتقدمون[٣].

كما فصَلَ بعضُ المحدثين (صار) من المجموعة، وَعَدَّ المنصوبَ بعدها تمييزًا، ولكن مِن المهم أنْ نقول: إنَّ جميع هذه الأفعال أفعالٌ عند القدماء[٤].

واختلفوا في (عسى) من حيث الفعلية والحرفية، فهي فِعل عند الجمهور على الإطلاق، وحرف مطلقًا عند ابن السراج، وعند السيرافي هي فِعل إن عملت عمل (لعل) كانت حرفًا، وإلا فهي فعل[٥].

(١) تجديد النحو، شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ص١١- ١٤.

(٢) شرح ابن عقيل، المكتبة العصرية، بيروت/ ١- ٢٤٤.

(٣) التسهيل لابن مالك، جمال الدين، مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الله الطائي الجياني الأندلسي (٦٠٠- ٦٧٢هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن السيد- الدكتور مُحَمَّد بدوي المختون ١/ ١٣٦.

(٤) في النحو العربي: نقده وتجديده، لمهدي المخزومي/ ١٧٦- ١٨٢.

(٥) أوضح المسالك ١/ ٣٠٠.

٣- اختلافهم في (كاد) وأخواتها؛ ذهب المخزوميُّ إلى: أنَّ دلالة هذه الأفعال مقاربة حدوث الفعل، ولا علاقة لهذه الدلالات بما تدلُّ عليه (كان) وأخواتها[١].

ويرى شوقي ضيف أنْ تُدرس (كاد) في باب الجملة الفعلية[٢]، ورأى أنَّ لهذه الأفعال مفعولًا به واحدًا.

وقد ردَّ مجمع اللغة العربية اقتراحه[٣].

وعلى هذا يمكن إعادة النظر في توصيف هذه الأفعال والنظر لها باعتبار آخر.

ويمكن استقراء (كان) و(إن) في آيات من القرآن الكريم، والوقوف على المعنى الدلالي لكل مِن اسمها وخبرها في سعي لإثبات النظرية أو نفيها.

(١) دراسات في النحو العربي وتطبيقاتها، لعاطف أبو جناح، دار الفكر: الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٨٩/ ٤٨- ٥١.

(٢) تجديد النحو، لشوقي ضيف ١٥- ١٦- ١٦٥.

(٣) مظاهر التجديد النحوي للغة العربية لدى مجمع اللغة العربية في القاهرة، ياسين أبو الهيجاء، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٢/ ٢٤١.

٢-٢ المبحث الثاني (الجانب التطبيقي):

علة نصب اسم (إن) وخبر (كان)

يقصد هذا البحث إلى دراسة دلالة اسم (إن) وخبر (كان) في القرآن الكريم في محاولة إثبات ما افترضته من أن المرفوع سواء كان اسم (إن) أو خبر (كان) هو الدلالة المنشودة التي يسعى التركيب إلى إيصالها للمتلقي، وهو المقصود بالدلالة الزمنية المكتسبة من إدخال (كان) أو حتى دلالة النفي بـ(ليس) ودلالة (إن) وأخواتها، وهذا الافتراض قائم على قاعدة أساسية وضعها علماء اللغة في اعتبار الرفع العلامة الأقوى، وأنها علامة الإسناد.

وسنحاول في هذا الفصل اختبار صحة هذه الفرضية على الآيات القرآنية التي ختمت بـ(غفور رحيم)، وقد ذكرت في القرآن الكريم سبعين مرة، ولكن قبل هذا فمن الجيد توضيح دلالة كل من المغفرة والرحمة بما يخدم البحث.

المغفرة لغة: الْغَيْنُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ عُظْمُ بَابِهِ السَّتْرُ. فَالْغَفْرُ: السَّتْرُ. وَالْغُفْرَانُ وَالْغَفْرُ بِمَعْنًى. يُقَالُ: غَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ غَفْرًا وَمَغْفِرَةً وَغُفْرَانًا[١].

أما الرحمة: الرَّاءُ وَالْحَاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ وَالْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ. يُقَالُ مِنْ ذَلِكَ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ[٢].

ويقول الرازي: «المغفرة: هو أن يَستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى إن العبد إذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال: إنه غفر له، والرحمة: هو أن يميل إليه بالإحسان لعجز المرحوم إليه لا لعوض، فإن من مال إلى إنسان قادر كالسلطان لا يقال: رَحِمَه، وكذا مَن أحسن إلى غيره رجاء في خيره أو عوضًا عما صدر منه آنفًا من الإحسان لا يقال: رحمه.

إذا علم هذا، فالمغفرة إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه سَتَرَ عيبه، ثم رآه مفلسًا

(١) مقاييس اللغة ٤/ ٣٨٥.

(٢) مقاييس اللغة ٢/ ٤٩٨.

عاجزًا فَرَحِمَه وأعطاه ما كفاه، وإذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة- وهو قليل- يكون معناها أنه مال إليه لعجزه، فترك عقابه، ولم يقتصر عليه، بل ستر ذنوبه»(١).

ووردت الآيات مختومة بالمغفرة والرحمة على خمسة أشكال:

٢-٢-١ المبتدأ والخبر مجرد عن (كان) و(إن)، وهي في الحالات التي لا يحتاج فيها إلى معنى إضافي، ويتساوى فيه المبتدأ والخبر في القصد الدلالي:

المبتدأ والخبر مجرد عن دخول كان وإن	
في معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم	قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(٢)
	قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾(٣)
في العفو عن صغير ذنوب المسلمين، وما لم يعلموا، ومن يظن التقصير	قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(٤)
	قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾(٥)
	قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا

(١) مفاتيح الغيب- التفسير الكبير، أبو عبد الله؛ مُحَمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي، خطيب الري (٦٠٦هـ)- دار إحياء التراث العربي- بيروت- **الطبعة**: الثالثة- ١٤٢٠هـ، ٢٥/ ١٥٧.

(٢) التحريم: ١.

(٣) آل عمران: ١٢٩.

(٤) الحجرات: ٥.

(٥) البقرة: ٢١٨.

	يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ (١)
فيمن يرجى إسلامه من المشركين	قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٢)
	قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)
	قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤)
	وقوله تعالى: ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٥)
في المغفرة لأهل الكتاب	قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٦)
	قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٧)

(١) التوبة: ٩١.

(٢) الأنفال: ٧٠.

(٣) الأحقاف: ٨.

(٤) التوبة: ٢٧.

(٥) الممتحنة: ٧.

(٦) الحديد: ٢٨.

(٧) المائدة: ٧٤.

	قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (١)
في الأحكام الموجهة للمؤمنين التي فيها شيء من الحرج	قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ (٢)
	قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (٣)
	قوله تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ (٤)

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) النساء: ٢٥.

(٣) النور: ٢٢.

(٤) يونس: ١٠٧.

٢-٢-١-١ معاتبة النبي ﷺ

٢-٢-١-١-١قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [١]:

واختلف في سبب نزول الآية على أقوال: أشهرها- وهو قول أكثر المفسرين-: أنَّ النبيَّ ﷺ كان في بيت حفصة، فزارت أباها، فلما رجعت أبصرت مارية في بيتها مع النبيّ ﷺ، فلم تدخل حتى خرجت مارية، ثم دخلت، فلما رأى النبيُّ ﷺ في وجه حفصة الغيرة والكآبة، قال لها: لا تُخبري عائشة، ولك عليَّ أن لا أقربها أبدًا، فأخبرت حفصة عائشة، وكانتا متصافيتين، فغضبت عائشة، ولم تَزل بالنبيّ ﷺ حتى حلف أن لا يَقرب مارية. فأنزل الله هذه السورة، وقيل: السبب أنه كان ﷺ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما: إنا نجد منك ريح مغافير.

وقيل: السبب: المرأة التي وهبت نفسها للنبيّ ﷺ[٢].

ويقول الشوكاني: «وكان لك ذنب من الصغائر، فلذا عاتبه الله عليه. وقيل: إنها معاتبة على ترك الأولى»[٣].

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، أي: لما فرط منك من تحريم ما أحلَّ الله لك.

وجاء قوله تعالى: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» مجردًا عن دخول (إن) و(كان)، وتوزع الثقل الدلالي على كل من المبتدأ، وهو لفظ الجلالة، والخبر: المغفرة والرحمة.

---

(١) التحريم: ١.

(٢) ذكرتها معظم التفاسير في موضع الآية.

(٣) فتح القدير- مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله الشوكاني اليمني (١٢٥٠هـ)- دار ابن كثير، دار الكلم الطيب- دمشق، بيروت **الطبعة**: الأولى ١٤١٤هـ/ ٢٩٨.

٢-٢-١-١-٢ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ (١).

وجاءت عقب قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران:١٢٩] (٢).

وذكر المفسرون أنَّ الله عزَّ وجلَّ إنما أنزل هذه الآية على نبيه محمد ﷺ؛ لأنه لما أصابه بأُحُدٍ ما أصابه من المشركين، قال كالآيس لهم من الهدى أو من الإنابة إلى الحقّ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِم؟!**»(٣)، فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

وجاء قوله تعالى: {وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ} مجردًا عن دخول (كان) أو (إن)، والدلالة في المبتدأ والخبر على حَدٍّ سواء، كما يمكن حملها على العموم فيما وضعه الله من قوانين؛ فيُعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء، وهو الغفور الرحيم، وجاء قوله تعالى: {وَٱللَّهُ غَفُورٞ} مجردًا عن دخول (كان) و(إن)، والدلالة في المبتدأ والخبر على حد سواء.

(١) آل عمران: ١٢٩.

(٢) آل عمران ١٢١- ١٢٩.

(٣) ذكرها معظم التفاسير.

٢-٢-١ -٢ العفو عن صغير ذنوب المسلمين، وما لم يعلموا، ومَن يظن التقصير

٢-٢-١-٢-١ صغير الذَّنب:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ (١).

وجاءت هذه الآية في سياق تحديده عز وجل لآداب الاستئذان في الدخول على النبي؛ يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحُجُرات:٣] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحُجُرات:٤] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحُجُرات:٥]، ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحُجُرات:٥].

وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : «إشارة إلى أنه تعالى لم يُحْص عليهم ذنبًا فيما فعلوا، ولا عَرَّض لهم بتوبة.

والمعنى: والله شأنه التجاوز عن مثل ذلك رحمة بالناس؛ لأن القوم كانوا جاهلين(٢)، وجاء قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مجردًا عن دخول (كان) أو (إن)، والدلالة في المبتدأ والخبر على حد سواء، ذلك أن الذنب يسير.

(١) الحجرات: ٥.

(٢) التحرير والتنوير- مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطاهر بن عاشور التونسي- الدار التونسية للنشر- تونس، ١٩٨٤هـ- ٢٦/ ٢٢٧.

٢-٢-١-٢-٢ الوقوع بالذنب من غير علم:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾[١].

وذكر أنها نزلت في عبد الله بن جحش وأصحابه؛ يقول الطبري: «لما كان من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه وأمر ابن الحضرمي ما كان- قال بعض المسلمين: إن لم يكونوا أصابوا في سفرهم- أظنه قال-: وزرًا، فليس لهم فيه أجر، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾[٢].

كما «أنه تعالى لما أوجب الجهاد من قبل بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾[٣]، وبَيَّن أن تركه سبب للوعيد أتبع ذلك بذكر مَن يقوم به، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، ولا يكاد يُوجد وعيد إلا ويعقبه وعد»[٤]، وجاء قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مجردًا عن دخول (كان) و(إن)، والدلالة في المبتدأ والخبر على حد سواء، ذلك أن الذنب صغير.

٢-٢-١-٢-٣ مَن يظن التقصير:

قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾[٥].

---

(١) البقرة: ٢١٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن- مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي؛ أبو جعفر الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي- دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان- الطبعة: الأولى ٢٠٠١ م- ٣/ ٦٦٨.

(٣) البقرة: ٢١٨.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي ٦/ ٣٩٥.

(٥) التوبة: ٩١.

والمعنى: ليس على مَن أحسن فنصح لله ورسوله في تخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جهاد معه لعذر يعذر به طريق يتطرَّق عليه، فيعاقب من قبله، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يقول: والله ساتر على ذنوب المحسنين يتغمدها بعفوه لهم عنها، رَحِيمٌ بِهِمْ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ[1]، وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مجردًا عن دخول (كان)، فالدلالة في المبتدأ والخبر على حد سواء، ذلك أن التقصير خارج عن الإرادة.

٢-٢-١-٣ فيمن يرجى إسلامه من المشركين:

٢-٢-١-٣-١ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾[2].

ذكر المفسرون أنها نزلت في العباس الذي كان أسيرًا يوم بدر، فقال العباس: كنت مسلمًا إلا أنهم أكرهوني، فقال عليه السلام: «**إن يكن ما تذكره حقًّا فالله يجزيك**»[3]، وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مجردًا عن دخول (كان) و(إن)، والدلالة في المبتدأ والخبر على حَدٍّ سواء، ذلك أن مَن هو مقصود بالمغفرة والرحمة يُرجى من المشركين.

٢-٢-١-٣-٢ وقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٨﴾[4].

وهو الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن، وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم جرمهم، وذلك أن باب التوبة مفتوح، وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مجردًا عن دخول (كان) و(إن) والدلالة في المبتدأ والخبر على حد سواء.

(١) تفسير الطبري ١١/ ٦٢٣.

(٢) الأنفال: ٧٠.

(٣) ذكرها معظم التفاسير.

(٤) الأحقاف: ٨.

٢-٢-١-٣-٣ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ (١).

وهذه الآية جاءت عقب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦﴾ (٢)، ثم جاء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾، وذكر المفسرون أنه يتوب عليهم بإسلامهم(٣)، وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ مجردًا عن دخول (كان) و(إن)، والدلالة في المبتدأ والخبر على حد سواء.

(١) التوبة: ٢٧.

(٢) التوبة: ٢٥- ٢٨.

(٣) انظر تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم؛ محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة: الثالثة- ١٤٠٧هـ، وانظر الجامع لأحكام القرآن- تفسير القرطبي- أبو عبد الله؛ مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية- القاهرة- الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م، وانظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل- ناصر الدين، أبو سعيد؛ عبد الله بن عمر بن مُحَمَّد الشيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ)، المحقق: مُحَمَّد عبد الرحمن المرعشلي- الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة: الأولى- وغيرها موضع الآية.

٢-٢-١-٣-٤ قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ (١).

والمعنى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ مِن كُفَّار مكة طاعة لله تعالى، ﴿مَّوَدَّةً﴾ بأن يهديهم للإيمان؛ فيصيروا لكم أولياء، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ﴾ على ذلك، وقد فعله بعد فتح مكة، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لهم ما سلف، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، فإن كانت كذلك، فالمعنى: مَن يرجى من الكفار، وحمله البيضاوي محملًا آخر؛ يقول: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فرط منكم في موالاتهم من قبل ولما بقي في قلوبكم من ميل الرحم»(٢)، وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مجردًا عن دخول (كان) و(إن)، والدلالة في المبتدأ والخبر على حد سواء.

٢-٢-١-٤ المغفرة لأهل الكتاب:

٢-٢-١-٤-١ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (٣).

و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو خطاب للذين آمنوا من أهل الكتاب حسب ما رجحه كثير من المفسرين؛ كالضحاك وعتبة، واختاره ابنُ جرير(٤).

وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مجردًا عن دخول (كان) و(إن)، والدلالة في المبتدأ والخبر على حد سواء؛ ذلك أن أهل الكتاب قريبون من المسلمين، ويعلمون رحمة الله وغفرانه، فجاء المعنى عام، والدلالة متساوية.

(١) الممتحنة: ٧.

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي/ ٢٠٥.

(٣) الحديد: ٢٨.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٣٤.

٢-٢-١-٤-٢ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾[(١)].

وهذه الآية كسابقتها في أهل الكتاب تحضُّهم على التوبة والاستغفار، وقد سبقها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

ويظهر فيها خصوصية أهل الكتاب؛ فهم يعلمون الحق، وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مجردًا عن دخول (كان) و(إن)، والدلالة في المبتدأ والخبر على حد سواء.

٢-٢-١-٤-٣ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[(٢)].

وروي: أنها نزلت لما قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه.

وقيل: نزلت في وفد نجران لما قالوا: إنما نعبد المسيح حبًّا لله.

(١) المائدة: ٧٤.

(٢) آل عمران: ٣١.

وقيل: في أقوام زعموا على عهده ﷺ أنهم يحبون الله؛ فأمروا أن يجعلوا لقولهم تصديقًا من العمل[1]، وهي كما سبقها في هذا المطلب خاصة بأهل الكتاب دون غيرهم.

٢-٢-١-٥ الأحكام الموجهة للمؤمنين التي فيها شيء من الحرج:

٢-٢-١-٥-١ قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾[2].

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذا كالمؤكد لما ذكره من أن الأولى ترك هذا النكاح، يعني: أنه وإن حصل ما يقتضي المنع من هذا الكلام إلا أنه تعالى أباحه لكم؛ لاحتياجكم إليه، فكان ذلك من باب المغفرة والرحمة، والله أعلم.

٢-٢-١-٥-٢ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

والآية نزلت في الصديق ﷺ حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعةٍ بعدما قال في عائشة ما قال، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على مَن كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأُقيم الحد على مَن أقيم عليه- شرع تبارك وتعالى- وله الفضل والمنة- يُعَطِّف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصِّدِّيق، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ﷺ، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد ولق ولقةً تاب الله عليه منها، وضُرِب الحَد عليها، وكان

(١) ذكرت هذه الروايات معظم التفاسير.

(٢) النساء: ٢٥.

(٣) النور: ٢٢.

الصديق ﷺ معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نَغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنَّا نحب- يا ربَّنا- أن تَغفر لنا، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان، قال: «والله لا أنفعه بنافعة أبدًا»(١).

٢-٢-١-٥-٣ قوله تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾(٢).

وهذه الآية سبقها عِدَّة آيات تدور حول عبادة الله وحده، وعدم الشرك به، أو دعوة غيره، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾(٣)، وجاءت هذه الآية تبين أن الأمر كله بيد الله، فسبحانه النافع الضار، وحَثَّت على عدم دعوة غيره، وهي من الأمور التي يقع فيها كثير من الناس، فيلجأون لغير الله في جلب منفعة أو دفع ضرر، وهي من الأمور الحرجة والحد الفاصل دون الوقوع في الشرك الأصغر دقيق جدًّا، ولذا ختم سبحانه الآية ببيان غفرانه ورحمته.

(١) ذكرتها معظم التفاسير.

(٢) يونس: ١٠٧.

(٣) يونس: ١٠٤- ١٠٦.

٢-٢-٢ دخول (إن) على الجملة الاسمية: (الله غفور رحيم) أو (له غفور رحيم):

	دخول إن
المغفرة بعد عبادة	قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (١)
	قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢)
	قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣)
استغفار رسول الله ﷺ	قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (٤)
	قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ

(١) البقرة: ١٩٩.

(٢) المزمل: ٢٠.

(٣) هود: ٤١.

(٤) الممتحنة: ١٢.

	فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ (١)
استغفار سيدنا ابراهيم عليه السلام	قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ (٢)
غفران المؤمنين لبعضهم	قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ (٣)
المغفرة لمن تاب وله عظيم الذنب من المسلمين	قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ (٤)
	قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ (٥)
	قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ (٦)
	قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ (٧)

(١) النور: ٦٢.

(٢) إبراهيم: ٣٦.

(٣) التغابن: ١٤.

(٤) المائدة: ٣٩.

(٥) الأنعام: ٥٤.

(٦) النحل: ١١٩.

(٧) التوبة: ١١٢.

	قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ (١)
	قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ (٢)
	قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ (٣)
	قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ (٤)
	قوله تعالى ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ (٥)
	قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ (٦)

(١) البقرة: ٢٢٦.

(٢) النور: ٣٣.

(٣) النحل: ١١٠.

(٥) الحجرات: ١٤.

(٦) التوبة: ٩٩.

	قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ (١)
التعريض بصغير ذنوب الرسل	**قوله تعالى:** ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١﴾ (٢)
المغفرة عن المضطر	قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ (٣)
	قوله تعالى ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ (٤)
	قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ (٥)
	قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ (٦)

(١) المائدة: ٣٤.

(٢) النمل: ١١.

(٣) الأنعام: ١٤٥.

(٤) المائدة: ٣.

(٥) البقرة: ١٧٣.

(٦) البقرة: ١٨٢.

	قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ (١)
المغفرة لما فوق الطاقة	قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۖ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ (٢)
	قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ (٣)
	قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (٤)
	قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (٥)
المغفرة لمن تاب وعاد من الكفار	قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ (٦)
	قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ (٧)

(١) النور: ٣٣.

(٢) البقرة: ٢٣٥.

(٣) يوسف: ٥٣.

(٤) النحل: ١٨.

(٥) المجادلة: ١٢.

(٦) البقرة: ١٩٢.

(٧) آل عمران: ٨٩.

المقابلة بين العقاب والمغفرة	قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾ (١)
	قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾ (٢)
	قوله تعالى﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٥﴾ (٣)

٢-٢-٢-١ المغفرة لم يستغفر وهم على أنواع:

٢-٢-٢-١-١ لمن استغفر بعد عبادة:

٢-٢-١ -١-١ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ (٤).

كثيرًا ما يأمر الله بالاستغفار بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت في «صحيح مسلم»: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثًا، وفي «الصَّحيحين» أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين(٥)، فأكد سبحانه على مغفرة الله لمن استغفره بعد عبادة.

(١) المائدة: ٩٨.

(٢) الأعراف: ١٦.

(٣) الأنعام: ١٦٥.

(٤) البقرة: ١٩٩.

(٥) تفسير القرآن العظيم، (ابن كثير)، أبو الفداء؛ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (٧٧٤هـ)، المحقق: مُحَمَّد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية، منشورات مُحَمَّد علي بيضون- بيروت- الطبعة: الأولى- ١٤١٩هـ ١/ ٤١٥.

٢-٢-٢-١-٢ قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ (١).

وهي كسابقتها في الحثِّ على الاستغفار بعد العبادة.

٢-٢-٢-١-٣ قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ (٢).

بعد إيمانهم وطاعتهم لرسولهم، أكد سبحانه على لسان نبيه مغفرته لهم، ويمكن حملها على دعاء نوح لقومه بالمغفرة، والله أعلم.

٢-٢-١ -٢ استغفار الرسل:

حيث أكد سبحانه وتعالى على مغفرته لمن يستغفر لهم الرسل كما في:

٢-٢-٢-٢-١ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ (٣).

«وفي قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يستغفر لهم تنبيهًا على أن الأولى أن لا يقع الاستئذان منهم وإن أذن؛ لأن الاستغفار يدل على الذنب، وربما ذكر عند بعض الرخص.

---

(١) المزمل: ٢.

(٢) هود: ٤١.

(٣) النور: ٦٢.

الثاني: يحتمل أنه تعالى أمره بأن يستغفر لهم مقابلة على تمسكهم بآداب الله تعالى في الاستئذان»[١].

٢-٢-٢-٢-٢ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[٢].

وهي كسابقتها في استغفار الرسول، ووجوب تحقق المغفرة.

٢-٢-٢-٢-٣ أو كما في رغبة إبراهيم بالمغفرة لمن سيعصي من ذريته في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾[٣].

واختلف المفسرون اختلافًا شديدًا في تفسير نوع المعصية؛ فاعتبرها بعضهم ما دون الشرك مثل الرازي[٤] مستشهدًا بالآية التي سبقتها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾[٥]، واتخذها بعضهم دليلًا على أن كل ذنب فلِلَّهِ أن يغفره حتى الشرك إلا أن الوعيد فرق بينه وبين غيره[٦].

وقد ذكر المفسرون آراء أخرى منها: أن المعنى: مَن عصاني ثم تاب.

وقيل: إن هذا الدعاء إنما كان قبل أن يعلم أن الله تعالى لا يغفر الشرك.

وقيل: مَن عصاني بإقامته على الكفر؛ فإنك غفور رحيم، يعني: أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإسلام.

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٤٢٤.

(٢) الممتحنة: ١٢.

(٣) إبراهيم: ٣٦.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٠٣.

(٥) إبراهيم: ٣٥.

(٦) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٠٠.

وقيل: المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يُمهلهم حتى يتوبوا[١].

والمعصية لغة مِن العصا: الاجتماع والائتلاف. ومنه قيل للخوارج: قد شَقُّوا عصا المسلمين، أي: فرَّقوا جماعتهم[٢]، وقال ابن منظور: «العصيان: خلاف الطاعة، عصى العبد ربه إذا خالف أمره. وعصى فلانٌ أميره يعصيه عصيًا وعصيانًا ومعصية إذا لم يطعه فهو عاص وعَصِيّ»[٣].

وشرعًا عَرَّفها ابنُ تيمية: «المعصية: هي مخالفة الأمر الشرعي؛ فمن خالف أمر الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه فقد عَصَى»[٤].

وما يهمنا في هذا الموضع هو تأكيد ابراهيم عليه السلام على مغفرة الله ورحمته، وهو بمثابة طلب المغفرة لهم مع الإلحاح الشديد، وهو أكثر مِن أن يستغفر لهم.

٢-٢-٢-٣ حث المؤمنين على العفو والصفح والغفران عن بعضهم:

كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾[٥].

والمعنى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ عنهم إذا اطلعتم منهم على عداوة، ولم تقابلوهم بمثلها، فإن الله

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٣٦٨.

(٢) تهذيب اللغة- مُحَمَّد بن أحمد بن الأزهري الهروي؛ أبو منصور (٣٧٠هـ)، المحقق: مُحَمَّد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، ٣/ ٥٠.

(٣) لسان العرب- مُحَمَّد بن مكرم بن علي؛ أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (٧١١هـ)، دار صادر- بيروت- الطبعة: الثالثة- ١٤١٤- ١٥/ ٦٧.

(٤) مجموع الفتاوى- تقي الدين، أبو العباس؛ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)- المحقق: عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن قاسم- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م (٨/ ٢٦٩).

(٥) التغابن: ١٤.

يغفر لكم ذنوبكم، ويكفر عنكم[١].

٢-٢-٢-٤ لمن تاب وله عظيم الذنب من المسلمين:

والآيات في هذا الباب كثيرة، حيث أَكَّد سبحانه مغفرته ورحمته لمن يستغفر ويتوب وهي:

٢-٢-٢-٤-١ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾[٢].

ونقل الطبري في مناسبة الآية: «حدثنا مُحَمَّد بن بشار، قال: ثنا يحيى بن سعيد، قال: ثنا سفيان، عن مجمع، قال: سمعت ماهان، قال: جاء قومٌ إلى النبيّ ﷺ قد أصابوا ذنوبًا عظامًا. قال ماهان: فما أخاله ردّ عليهم شيئًا. قال: فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾»، وذكر مناسبة أخرى يقول: «وقال آخرون: بل عُني بها قوم من المؤمنين كانوا أشاروا على النبيّ ﷺ بطرد القوم الذين نهاه الله عن طردهم، فكان ذلك منهم خطيئة، فغفرها الله لهم، وعفا عنهم، وأمر نبيه ﷺ إذا أتوه أن يبشرهم بأن قد غفر لهم خطيئتهم التي سلفت منهم بمشورتهم على النبيّ ﷺ بطرد القوم الذين أشاروا عليه بطردهم. وذلك قول عكرمة وعبد الرحمن بن زيد»، ورجح الطبري الرواية الأولى[٣].

وذكر المفسرون في تفسير الجهالة معنيين: الخطيئة من غير قصد، ومن آثر العاجل على الآخرة فهو الجاهل[٤]، فأكد سبحانه مغفرته لمن تاب.

ويقول القرطبي في «تفسيره» لآية النساء: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ

(١) تفسير الزمخشري ٤/ ٥٥٠.

(٢) الأنعام: ٥٤.

(٣) الطبري: ٩/ ٢٧٢.

(٤) انظر الزمخشري ٢/ ٢٩، والقرطبي ٦/ ٤٣٦، والرازي ١٣/ ٧.

ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾﴾ [1]: «أن معنى السوء فِي هَذِهِ الْآيَةِ، و(الْأَنْعَامِ): أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهالَةٍ يَعُمُّ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ، فَكُلُّ مَنْ عَصَى رَبَّهُ فَهُوَ جَاهِلٌ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْ مَعْصِيَتِهِ»، ونقل أقوالًا للعلماء تُفيد أنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ فَهِيَ بِجَهَالَةٍ؛ عَمْدًا كَانَتْ أَوْ جَهْلًا[2]، وأكدت الآية على مغفرة الله لمن تاب.

٢-٢-٢-٤-٢ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٩﴾﴾ [3].

وهي كسابقتها في الغفران لمن يعمل السوء بجهالة ثم تابوا، وجاءت بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٩﴾﴾ [4] في سياق تحديده لبعض الحرمات، ونهيه سبحانه للتحريم والتحليل كذبًا وافتراء، ثم فتح الله باب التوبة للمسيئين بجهالة، وقد وضحناه في الآية السابقة[5].

(١) النساء: ١٧.

(٢) القرطبي: ٥/ ٩٢.

(٣) النحل: ١١٩.

(٤) النحل: ١١٦- ١١٨.

(٥) يحدد القرطبي معنى السوء في هذه الآية: الشرك، محيلًا إلى تفسيره للآية ١٧ من سورة النساء، وقد ذكرت تفسيره عندها، وفي آية الأنعام، ولا أدري لماذا حَدَّدها بالشرك في هذه الآية مع أنَّه فسر السوء بالكفر والمعاصي في آية النساء وآية الأنعام.

٢-٢-٢-٤-٣ قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٠٢﴾ (١).

وقد سبقها حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [التوبة:١٠١] (٢).

وفي نزولها قولان:

الأول: أنهم قوم من المنافقين تابوا عن النفاق.

والثاني: أنهم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك، لا للكفر والنفاق، لكن للكسل، ثم ندموا على ما فعلوا، ثم تابوا(٣).

في «السنن الكبرى» للبيهقي: أخبرنا أبو زكريا بن أبي إسحاق، أنبأ أبو الحسن الطرائفي، ثنا عثمان بن سعيد، ثنا عبد الله بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: « كل عسى في القرآن فهي واجبة»(٤)، والقرآن نزل على عرف الناس في الكلام، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئًا فإنه لا يجيب إليه إلا على سبيل الترجي مع كلمة عسى، أو لعل، تنبيهًا على أنه ليس لأحد أن يلزمني شيئًا، وأن يكلفني بشيء، بل كل ما أفعله فإنما أفعله على سبيل التفضل والتطول، فذكر كلمة (عَسَى) الفائدة فيه هذا المعنى، مع أنه يُفيد القطع بالإجابة.

(١) التوبة: ١١٢.

(٢) التوبة: ١٠١.

(٣) الطبري ١١/ ٦٥١.

(٤) السنن الكبرى- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني؛ أبو بكر البيهقي (٤٥٨هـ)- تحقيق محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الثالثة- ٢٠٠٣م ٩/ ٢٣.

كما يجب أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق؛ لأنه أبعد من الإنكار والإهمال[١].

وعليه، فإن معنى الآية يرتكز على التوبة؛ لذلك خُتمت بتوكيد مغفرة الله بـ(إن).

٢-٢-٣-٣-٥ وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾[٢].

قَوْلُهُمْ: آلَى يُولِي: إِذَا حَلَفَ أَلِيَّةً وَإِلْوَةً...، قَالَ الْفَرَّاءُ: يُقَالُ: ائْتَلَى الرَّجُلُ: إِذَا حَلَفَ، وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢][٣]، وفي «اللسان»: «والْفِعْلُ: آلَى يُؤْلِي إِيلَاءً: حَلَفَ، وتأَلَّى يَتأَلَّى تأَلِّيًا وأْتَلَى يَأْتَلِي ائْتِلاءً»[٤].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يَغفر للمؤلين ما عسى يقدمون عليه من طلب ضرار النساء بالإيلاء، وهو الغالب»[٥].

٢-٢-٢-٤-٥ قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[٦].

وجاءت هذه الآية عقب قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾[٧]، ولا شك أنَّ السرقة من الذنوب العظيمة التي تستوجب الحد؛ لذلك أكد سبحانه وتعالى على أنه يتوب عمن تاب عن هذا الذنب.

(١) الرازي ١٦/ ١٣٣.
(٢) البقرة: ٢٢٦.
(٣) مقاييس اللغة، لابن فارس ١/ ٢٨.
(٤) لسان العرب 14/ ٤٠.
(٥) انظر القرطبي ٣/ ١١٠.
(٦) المائدة: ٣٩.
(٧) المائدة: ٣٨.

٢-٢-٢-٤-٦ قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ (١).

وسبقها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ (٢).

وعند أبي حنيفة رحمه الله الاستثناء المذكور عقيب الجمل الكثيرة مختص بالجملة الأخيرة، وعند الشافعي رحمه الله يرجع إلى الكل(٣)، ورمي المحصنات ذنب عظيم يؤكد سبحانه على أنه يغفره لمن تاب وأصلح.

٢-٢-٢-٤-٧ قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ (٤).

وهذه الآية نزلت حسب قول المفسرين في قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا قد تخلَّفوا بمكة بعد هجرة النبيّ ﷺ، فاشتدَّ المشركون عليهم حتى فتنوهم عن دينهم، فأيسوا من التوبة، فأنزل الله فيهم هذه الآية، فهاجروا ولحقوا برسول الله ﷺ(٥).

٢-٢-٢-٤-٨ قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ (٦).

وجاءت هذه الآية عقب قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ

(١) النور: ٥.
(٢) النور: ٤- ٥.
(٣) الرازي ٢٣/ ٣٢٨، وانظر الزمخشري ٣/ ٢١٤.
(٤) النحل: ١١٠.
(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٣٧٧.
(٦) الأنفال: ٦٩.

فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [1].

ونزلت في أسرى بدر، وذلك أن رسول الله ﷺ أسر منهم، واستشار صحابته في الفداء أو القتل؛ فأشاروا عليه بالفداء، فأخذ الفدية منهم، فنزلت الآية: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [2]، ومعنى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ ذكر فيها المفسرون معان، منها: لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح، وهو أنه لا يعاقب أحد بخطأ، أو أن أهل بدر مَغفور لهم[3].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ معناه: أنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يُؤذن لكم فيه- غَفر لكم ورحمكم وتاب عليكم[4].

ويتضح من قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [5]: أن اتخاذ الأسرى كان شيئًا عظيمًا أكد سبحانه وتعالى أنه يغفره في حال وجود التقوى.

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: «مَعْنَاهُ: إِذَا اتقيتموه بعد ما فَرَطَ مِنْكُمْ مِنِ اسْتِبَاحَةِ الْفِدَاءِ قَبْلَ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ فِيهِ غَفَرَ لَكُمْ وَرَحِمَكُمْ وَتَابَ عَلَيْكُمْ»[6].

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: «وَجَاءَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اعْتِرَاضًا فَصِيحًا فِي أَثْنَاءِ الْقَوْلِ؛ لِأَنَّ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هُوَ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾.

(١) الأنفال ٦٧- ٦٨.

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٢٦٩.

(٣) البحر المحيط في التفسير- أبو حيان؛ مُحَمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي مُحَمَّد جميل- دار الفكر- بيروت- الطبعة: ١٤٢٠هـ ٥/ ٣٥٣.

(٤) تفسير الرازي ٢/ ٢٣٨.

(٥) الأنفال: ٦٨.

(٦) الزمخشري ٣/ ٢٣٨.

وَقِيلَ: غَفُورٌ لِمَا أتيتم بإحلال ما غَنمتم»[١].

٢-٢-٢-٤-٩ قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾[٢].

والسورة مدنية، ذكر الزمخشري أنها نزلت بعد المجادلة[٣].

وذكر ابن كثير أنها نزلت في السنة التاسعة من الهجرة[٤]، وهي مِن آخر السور التي نزلت.

وذكر المفسرون أنَّ هذه الآية نزلت في أعراب بني أسد حين قدموا المدينة، وامتنوا بإسلامهم، وقالوا: آمنا. وكانوا يمنون على رسول الله[٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني: بالإخلاص وترك النفاق. ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لما فرط من المطيعين. ﴿رَّحِيمٞ﴾ بالتفضل عليهم[٦].

وجاء تأكيد المغفرة والرحمة سابقًا لتوبيخهم على مَنِّهم إسلامهم؛ يقول تعالى: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾[٧].

كما سبق غفرانه ورحمته بيانه سبحانه للحال التي يجب أن يكونوا عليها من إيمان وتصديق وجهاد، بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٥٥.

(٢) الحجرات: ١٤.

(٣) وذكر الزمخشري عند المجادلة: أنها نزلت بعد (المنافقين)، وعند (المنافقين) أنها نزلت بعد الحج.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤- ٢٠٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٢٦- ١٤١، وتفسير ابن كثير ٤- ٢١٩، والدر المنثور (٦- ١١١).

(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- أبو مُحَمَّد؛ عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)المحقق: عبد السلام عبد الشافي مُحَمَّد- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة: الأولى- ١٤٢٢هـ، ٢/ ٥٥٤.

(٧) الحجرات: ١٦- ١٧.

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [1]، وهو من رحمة الله، وتفضل قرر المغفرة والرحمة قبل كل شيء.

٢-٢-٢-٤-١٠ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [2].

وسورة التوبة مدنية نزلت بعد سورة المائدة، وهي آخر سورة نزلت، أو أنها سبقت النصر، وكانت النصر آخرها، وهذه الآية كسابقتها في الأعراب، وقد سبقها نزولًا الآية السابقة في سورة الحجرات[3]، وفيها- أيضًا- توبيخ للأعراب إلا أن هذا الموضع في سورة التوبة أشد توبيخًا، وختمت كلتا الآيتين- آية الحجرات والآية التي بين أيدينا- بقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، وسبق الآية التي بين أيدينا قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [4].

حيث شمل الله سبحانه الأعراب جميعًا بأنهم أشد كفرًا ونفاقًا، وأجدر ألا يعلموا حدود الله، وحملها الرازي كلمة الأعراب على أنها تخص المنافقين منهم، وأن الـ(أل) للعهد الذهني، وليست لاستغراق الجنس محتجًّا بأن الآيات السابقة تحدثت عن المتخلفين من المنافقين[5].

وهو في نظري تكلف، خاصة أنه سبحانه وتعالى لم يُكفر الأعراب في هذه الآية، إنما قرر سبحانه بعلمه أنهم أشد كفرًا ونفاقا في حال كفرهم، وهم أجدر ألا يعلموا حدود الله،

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) التوبة: ٩٩.

(٣) وذكر الزمخشري أن المائدة نزلت بعد الفتح، والفتح بعد الجمعة، والجمعة بعد الصف، والصف بعد التغابن، والتغابن بعد التحريم، والتحريم بعد الحجرات. انظر مواضع السور في التفسير.

(٤) التوبة: ٩٧- ٩٨.

(٥) تفسير الرازي ١٦/ ١٢٥.

فلا داعي لتوجيه (أل) للعهد الذهني عوضًا عن الاستغراق

ثم ذكر منهم فريقين: الأول يتخذ ما أنفق مغرمًا، أي: غَرَامَةً وَخَسَارَةً، وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ، أَيْ: يَنْتَظِرُ بِكُمُ الْحَوَادِثَ وَالْآفَاتِ، وَاللَّه سَمِيعٌ لِقَوْلِهِمْ، عَلِيمٌ بِنِيَّاتِهِمْ.

والقسم الثاني: هو مَن ينفق قربة لله والرسول، ووعدهم سبحانه بالرحمة، وأكد مغفرته لسيئاتهم، وجاء التأكيد على المغفرة باعتبارهم جزءًا من الأعراب الذين شملهم سبحانه بحكم عام في الآية السابعة والتسعين.

٢-٢-٢-٤-١١ قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾[١].

وسبقها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾[٢].

وذكر المفسرون أن هذا الوعيد مختص بالكفار، ومنهم من قال: إنه في فُسَّاق المؤمنين، ومنهم من قال: إنها في المسلمين وغيرهم، وذكروا مناسبات كثيرة للآية[٣].

(١) المائدة: ٣٤.

(٢) المائدة: ٣٣.

(٣) أولها أنها نزلت في قوم من عرينة نزلوا المدينة مظهرين للإسلام، فمرضت أبدانهم، واصفرت ألوانهم، فبعثهم رسول الله ﷺ إلى إبل الصدقة؛ ليشربوا من أبوالها وألبانها فيصحوا، فلما وصلوا إلى ذلك الموضع، وشربوا وصحوا- قتلوا الرعاة، وساقوا الإبل، وارتدوا، فبعث النبي ﷺ في أثرهم، وأمر بهم؛ فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، وتركوا هناك حتى ماتوا، فنزلت هذه الآية نسخًا لما فعله الرسول، فصارت تلك السنة منسوخة بهذا القرآن.

والثاني: أن الآية نزلت في قوم أبي برزة الأسلمي، وكان قد عاهد رسول الله ﷺ، فمر قوم من كنانة يريدون الإسلام، وأبو برزة غائب؛ فقتلوهم، وأخذوا أموالهم.

الثالث: أن هذه الآية في هؤلاء الذين حكى الله تعالى عنهم من بني إسرائيل أنهم بعد أن غلظ الله عليهم عقاب القتل العمد العدوان فهم مُسرفون في القتل، مفسدون في الأرض، فمن أتى منهم بالقتل والفساد في الأرض فجزاؤهم كذا وكذا.

والوجه الرابع: أن هذه الآية نزلت في قطاع الطريق من المسلمين، وهذا قول أكثر الفقهاء.

وشرح الله عز وجل ما يجب على هؤلاء المحاربين من الحدود والعقوبات استثنى عنه ما إذا تابوا قبل القدرة عليهم.

ومعظم العلماء على أن ما يتعلق من تلك الأحكام بحقوق الله تعالى فإنه يسقط بعد هذه التوبة، وما يتعلق منها بحقوق الآدميين فإنه لا يسقط، والشافعي رحمه الله تعالى قال: يحتمل أن يسقط كل حد الله بالتوبة[١].

٢-٢-٢-٥ التعريض بصغير ذنوب الرسل:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾[٢].

وسبقها قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾[٣].

ويقول الزمخشري: «{إلا} بمعنى «لكن»؛ لأنه لما أطلق نفي الخوف عن الرسل، كان ذلك مظنة لطروّ الشبهة، فاستدرك ذلك»[٤].

والمعنى: ولكن مَن ظلم منهم، أي: فَرَطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء؛ كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومِن موسى بوكزه القبطي[٥].

وأَوَّلها مَن ادعى العصمة المطلقة للأنبياء بأن الاستثناء منقطع، وهو إخبار عن غير الأنبياء، كأنه قال: لكن مَن ظلم من الناس، ثم تاب؛ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ، وهذا رأي الفراء، وقالت فرقة: (إِلَّا) بمعنى الواو[٦].

(١) الزمخشري.

(٢) النمل: ١١.

(٣) النمل: ١٠.

(٤) تفسير الزمخشري ٣/ ٣٥١.

(٥) وذكره معظم المفسرين، والجماعة: على أن عصمة الأنبياء في كبير الذنوب مُعظم المفسرين.

(٦) تفسير ابن عطية ٤/ ٢٥٢.

فأوجب سبحانه مغفرته لمن بدل حسنًا بالسوء، وربما كان صغير ذنوب الأنبياء ككبير ذنوب العامة من الناس، ولذلك تشابهت الخواتيم في التركيز على غفران الله باشتراط التوبة، أو تبديل السوء بالحسن، وهو من مظاهر التوبة.

٢-٢-٢-٥ في المغفرة عن المضطر:

٢-٢-٢-٥-١ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [(١)]، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [(٢)]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [(٣)]، وهي في المعنى نفسه في المغفرة عن المضطر لأكل شيء من المحرمات.

٢-٢-٢-٥-٢ قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [(٤)].

واختلف المفسرون فيمَن قصد بالمغفرة المكرَه أم المكرِه؟

(١) البقرة: ١٧٣.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) المائدة: ١٤٥.

(٤) النور: ٣٣.

وقرأ ابن عباس: (لهن غفور رحيم)، وخَصَّها ابن عطيه بهن، ثم عقب بقوله: «وقد يتصور الغفران والرحمة بالمكرهين بعد أن تقع التوبة من ذلك، فالمعنى: غَفُورٌ لمن تاب»[(١)].

وجوز الزمخشري إعادتها لهم أو لهن، أو لهم ولهنَّ إن تابوا وأصلحوا، واحتج بصرف المغفرة لهن بقوله: «فإن قلت: لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهنَّ؛ لأن المكرهة على الزنا بخلاف المكره عليه في أنها غير آثمة.

قلت: لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل، أو بما يخاف منه التلف، أو ذهاب العضو؛ من ضرب عنيف أو غيره حتى تسلم من الإثم، وربما قصرت عن الحدِّ الذي تعذر فيه فتكون آثمة»[(٢)].

والأرجح والله أعلم: أن المغفرة والرحمة عائدة لهن حيث إن المكرهين لم يتوبوا عن الإكراه، وربما حاول ابن عطية توجيه الآية لهذا المعنى بقوله السابق: «وقد يتصور الغفران للمكرهين بعد أن تقع التوبة»، والسياق الدلالي لا يحتمل هذا، بل على العكس هو بيان لحال الفتيات في حال الإكراه، ويدعم هذا قراءة ابن عباس: (لهن غفور رحيم)، ويؤيده- أيضًا- تفسير الزمخشري أن التعليق على المغفرة سببه: أنه ربما قصرت عن الحدِّ الذي تعذر فيه فتكون آثمة، وعليه فهو يدخل في الاضطرار، وختمت بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تأكيدًا على مغفرة الله سبحانه وتعالى.

٢-٢-٢-٥-٣ قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾[(٣)].

واختلف المفسرون في عود الضمير في قوله تعالى: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ ، فمنهم من رَدَّه

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- أبو مُحَمَّد؛ عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ)- عبد السلام عبد الشافي مُحَمَّد- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة: الأولى- ١٤٢٢/ ١٨٢.

(٢) تفسير الزمخشري ٣/ ٢٤٠.

(٣) البقرة: ١٨٢.

للمصلح؛ يقول الزمخشري: «﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصى لهم وهم الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حينئذ؛ لأنَّ تبديله تبديل باطل إلى حق»[(١)].

ومنهم من أعاد الضمير على الموصي: «يقول مجاهد: مَن خشي أن يحيف الموصي، ويقطع ميراث طائفة، ويتعمد الإذاية أو يأتيها دون تعمد، وذلك هو الجنف دون إثم، وإذا تعمد فهو الجنف في إثم، فالمعنى: مَن وعظه في ذلك ورَدَّه عنه فصلح بذلك ما بينه وبين ورثته وما بين الورثة في ذاتهم، فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عن الموصي إذا عملت فيه الموعظة، ورجع عما أراد من الإذاية، رَحِيمٌ به»[(٢)].

ومنهم مَن حمل المعنى على أن هذا الإصلاح بعد الموت، ورد الضمير للمصلح؛ قال ابن عباس ﷺ وقتادة والربيع: «معنى الآية: مَن خاف، أي: علم ورأى وأتى علمه عليه بعد موت الموصي أن الموصي خلف وجنف وتعمد إذاية بعض ورثته، فأصلح ما وقع بين الورثة من الاضطراب والشقاق فلا إثم عليه، أي: لا يلحقه إثم المبدل المذكور قبل وإن كان في فعله تبديل ما ولا بد، لكنه تبديل لمصلحة، والتبديل الذي فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى»[(٣)].

والأرجح- والله أعلم- أن المبرأ من الإثم المصلح بين الموصي والورثة؛ استنادًا إلى عود الضمير إلى أقرب مذكور: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، ويدعمه السياق الدلالي في أنه مستثنى من التبديل المحذر عنه في الآية السابقة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾[(٤)].

وأُرَجِّح رأي ابن عباس في أن هذا الإصلاح يكون بعد الوفاة، فيكون المصلح في حرج من تغيير الوصية، ويخاف أن يقع في إثم تبديل الوصية بعد سماعها في الآية السابقة، وربما

(١) تفسير الزمخشري ١/ ٢٢٤.

(٢) تفسير ابن عطية ١/ ٢٤٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البقرة: ١٨١.

شمل قبل الوفاة وبعدها، وعليه فإنه سبحانه ختم الآية بالتأكيد على غفرانه ورحمته.

٢-٢-٢-٦ المغفرة لما فوق الطاقة:

٢-٢-٦-١ قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾[١].

وفي هذه الآية عدة اشكالات منها: الفاصل بين التعريض[٢]، والتصريح[٣]، والإكنان[٤]، وكيفية المواعدة سرًّا، والتي اختلفت أقوال المفسرين في تحديد دلالتها بين الزنا، واختاره الطبري، وفسرها آخرون على أنَّ المواعدة في السرِّ عبارة عن المواعدة بما يستهجن؛ لأن مسارَّتهنَّ في الغالب بما يُستحيا من المجاهرة به[٥]، وآخرون بمعنى أن يأْخُذَ عَهْدَ الْمَرْأَةِ، وَهِيَ فِي عِدَّتها أن لا تَنْكِحَ غيره[٦].

أضف إلى ذلك معنى القول المعروف، والذي هو على أرجح الأقوال ما ذُكر من التعريض[٧].

---

(١) البقرة: ٢٣٥.

(٢) وَمِنَ الْبَابِ: مَعَارِيضُ الْكَلَامِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَخْرُجُ فِي مِعْرَضٍ غَيْرِ لَفْظِهِ الظَّاهِرِ. مقاييس اللغة ٤/ ٢٨٠، والتَّعْرِيضُ فِي خِطْبَةِ المرأَة فِي عِدَّتِهَا: أَن يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ يُشْبِهُ خِطْبتها، وَلَا يُصَرِّحَ بِهِ، وَهُوَ أَن يَقُولَ لَهَا: إِنك لجَمِيلَةٌ، أَو إِن فِيكِ لبقِيَّة، أَو إِن النِّسَاءَ لَمِنْ حَاجَتِي. وَالتَّعْرِيضُ قَدْ يَكُونُ بِضَرْبِ الأَمثال، وَذِكْرِ الأَلغاز فِي جُمْلَةِ الْمَقَالِ. لسان العرب ٧/ ١٨٣.

(٣) تفسير الطبري ٤/ ٢٧٨.

(٤) الْكَافُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى سَتْرٍ أَوْ صَوْنٍ. يُقَالُ: كَنَنْتُ الشَّيْءَ فِي كِنِّهِ، إِذَا جَعَلْتَهُ فِيهِ وَصُنْتَهُ. وَأَكْنَنْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ. مقاييس اللغة ٥/ ١٢٣.

(٥) تفسير الزمخشري ١/ ٢٨٤.

(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٤.

(٧) تفسير ابن عطية ١/ ٣١.

وكثرت في الآية الألفاظ التي تُعبر عن مكنونات النفس: قوله تعالى: ﴿أَوَ أَكِنَّتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وكل ما يتعلق بالنفس البشرية لا يُستطاع تحديده تمامًا، ويُظن فيه الوقوع بالإثم، ولذلك أكد سبحانه مغفرته ورحمته لما فوق الطاقة.

٢-٢-٢-٦-٢ قوله تعالى١ ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ (٢).

وذكر المفسرون في تفسير هذه الآية عدة تفسيرات، منها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ﴾ أي: لا أنزهها، تنبيهًا على أنه لم يُرد بذلك تزكية نفسه والعجب بحاله، بل إظهار ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق(٣)، وذكروا تفسيرات أخرى بأنه ما يبرئ نفسه بالهم الذي همَّه.

وقد ذكر المفسرون في تفسير الآية: أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (٤)- أن (لو) وهو حرف امتناع لوجوب، فقد كان هَمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه(٥).

وذكر بعضهم أنه قول امرأة العزيز تبرئة يوسف من الهم(٦)، وذلك لا يليق بالمرأة التي استفرغت جهدها في المعصية(٧).

---

(١) لو تناولنا هذا المثال مستندين إلى أن الهم حديث النفس، وهو قول اختاره كثير من المفسرين؛ كالقرطبي- يمكن وضع هذا المثال في صغار ذنوب الأنبياء، ولكن استندنا إلى أن المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فما وقع الهم، ويؤيده قوله تعالى على لسان يوسف حسب ما رجَّحنا من أنه كلام يوسف، وليس كلام امرأة العزيز: {ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين}.

(٢) يوسف: ٥٣.

(٣) ذكره معظم المفسرين.

(٤) يوسف: ٢٤.

(٥) والصريحُ: الْخَالِصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ ضِدُّ الْكِنَايَةِ.... وصَرَحَ الشيءَ وصَرَّحه وأَصْرَحه إذا بَيَّنه وأَظهره. لسان العرب ٢/ ٥١١.

(٦) انظر القرطبي ٩/ ١٦٥- ١٦٦.

(٧) انظر الرازي ١٨/ ٤٤١.

وخُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالتأكيد على المغفرة؛ لتعلق الآية بالنفس الإنسانية، وما يخالجها من أفكار ومشاعر لا نستطيع رصدها بشكل محدد، فيظن الإنسان أنه ربما وقع في محظور، فيؤكد سبحانه مغفرته لما هو فوق طاقته منها.

٢-٢-٢-٦-٣ قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[1].

والآيات التي سبقتها كلها في ذِكر نِعم الله، يقول سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾[2].

وإحصاء نعم الله مما لا طاقة للإنسان فيه، وقد حَثَّت آيات كثيرة في القرآن الكريم على التفكر بنعم الله؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى

(١) النحل: ١٨.

(٢) النحل: ٢- ١٧.

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾، ويبين سبحانه أنه غفور يتجاوز عن التقصير في أداء شكر النعمة، ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ من أعمالكم، وهو وعيد، وإن كانت هذه الآية لاحقة إلا أنها عطفت على سابقتها، واشتملت على ما اشتملت عليه الآيات السابقة في هذا المحور من الإسرار وأحوال النفس التي لا يعلمها إلا الله، فيؤكد سبحانه مغفرته لمن قصر بما هو فوق طاقته.

٢-٢-٢-٦-٤ من لم يجد صدقة؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (١).

فما أمر بها إلا مَن قدر عليها(٢)، وأكد سبحانه غفرانه لمن لم يَقدر.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تأكيد لمغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته بمن لا يستطيع تقديم الصدقة.

٢-٢-٢-٧ المغفرة لمن تاب وعاد من الكفار:

٢-٢-٢-٧-١ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ (٣).

وهي في التوبة عن المشركين؛ يقول سبحانه: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الشرك بالإيمان، {وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ} تصديقًا لتوبتهم وإيمانهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للأمر، أي: فخلوهم؛ لأن الله غفور رحيم غفر لهم ما قد سلف وعد لهم الثواب بالتوبة.

(١) المجادلة: ١٢.

(٢) وتبعها قوله تعالى: {أَءَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّموا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَٰكُمْ صَدَقَٰتٍ}؟ أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول؟ {فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ}، وذكر المفسرون أن الآية الثانية نسخت وجوب الصدقة.

(٣) التوبة: ٥.

٢-٢-٢-٧-٢ قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [(١)].

وسبقها قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [(٢)].

واختلف المفسرون فيما انتهوا عنه في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ ؛ قال ابن عباس: «فإن انتهوا عن القتال، واحتج أن المقصود من الإذن في القتال منع الكفار عن المقاتلة، فكان قوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ محمولًا على ترك المقاتلة.

وقال الحسن: فإن انتهوا عن الشرك، واحتج أن الكافر لا ينال غفران الله ورحمته بترك القتال، بل بترك الكفر»[(٣)].

ورجح معظم المفسرين أنَّ المعنى: إن انتهوا عن قتالكم بالإيمان فالانتهاء عن القتال والكفر[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تأكيد لمغفرته عمَّن انتهى عن القتال والكفر، كما رَجَّحه المفسرون.

٢-٢-٢-٨ بين العقاب والمغفرة:

٢-٢-٢-٨-١ قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٥)].

وجاءت هذه الآية عقب مجموعة كبيرة من الأحكام الشرعية التي يستوجب الإخلال بها العقاب الشديد، فأكد سبحانه أنه شديد العقاب كما أكد على رحمته وغفرانه، ثم بين

(١) البقرة: ١٩٢.

(٢) البقرة: ١٩١.

(٣) تفسير الرازي ٥/ ٢٩١.

(٤) تفسير القرطبي ٢/ ٣٥٣، ابن كثير ١/ ٣٨٨ وغيرها.

(٥) المائدة: ٩٨.

سبحانه أن مهمة الرسول التبليغ يقول جل وعلا: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١).

٢-٢-٢-٨-٢ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ (٢).

وهي الآية الأخيرة في سورة الأنعام، وسبقتها آيات شاملة في شرع الله ومنهاجه: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (٣)، وجاءت الآية استكمالًا لشرع الله ومنهاجه؛ يقول الرازي: «الكلام بلغ في شرح الأعذار والإنذار والترغيب والترهيب إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه» (٤)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ لمن كفر نعمته، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن قام بشكرها.

٢-٢-٢-٨-٢ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ (٥)، وهي في بني إسرائيل التي تحدثت الآيات السابقة عنهم، واستمر الحديث عنهم في الآيات اللاحقة، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ

(١) المائدة: ٩٩.

(٢) الأنعام: ١٦٥.

(٣) الأنعام ٥٩- ٦٤.

(٤) الرازي ١٤/ ١٩٣.

(٥) الأعراف: ١٦٧.

سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه وخالف شرعه؛ ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة؛ لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرًا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف، وهو نهج الله في معاقبة المسيئين ومكافأة المصلحين.

٢-٢-٣ دخول (إن) والخبر جملة اسمية، أو الفصل بضمير الفصل:

وهذ المطلب لا يختلف عن سابقه، وربما تشابهت مباحثه إلا أن ثقل الدلالة الذي هو في الخبر على شكل جملة اسمية يتوزع الثقل الدلالي فيها على المبتدأ والخبر، والمبتدأ في هذه الجملة يدل على اسم (إن) نفسه؛ فمثلًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الضمير (هو) يدل على ما دلت عليه الهاء في (إنه) وهي اسم (إن)، أو أن يعرب ضمير فصل مؤكدًا لاسم (إن)، وحاصرًا معناه في الخبر، وضمير الفصل: حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر إذا كان معرفتين، ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [(١)]، وقوله: ﴿﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾﴾ [(٢)]، وبضمير المخاطب كقوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [(٣)]، وضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ ، وله ثلاثة فوائد:

الأولى: التوكيد، فإن قولك: (زيد هو أخوك) أوكد من قولك: (زيد أخوك).

والثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله لما بعده، فإنَّ قولك: (المجتهد هو الناجح) يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح.

والثالثة: الفصل، أي: التمييز بين كونه ما بعده خبرًا أو تابعًا، فإن قولك: (زيد الفاضل) يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد، والخبر منتظر، ويحتمل أن تكون الفاضل خبرًا،

(١) طه: ١٤.

(٢) الصافات: ١٦٥.

(٣) المائدة: ١١٧.

وإذا قلت: (زيد هو الفاضل)، تعين أن تكون الفاضل خبرًا؛ لوجود ضمير الفصل[١].

وجاء في هذا المطلب عدد من الآيات فصل بين اسم (إن) وخبرها بضمير الفصل، وربما انحصرت معانيه بالتوكيد والحصر في هذه الآيات، واسم (إن) هو في هذه الآيات هو لفظ الجلالة، أو ما ينوب مكانه، فانتزع جزءًا من الدلالة، وسواءً أعربنا الضمير مبتدًا أو ضمير فصل، فإن الدلالة واحدة، وهي صرف شيء من الثقل الدلالي إلى اسم (إن)، وقد ورد عدد من الآيات خبرها جملة اسمية أو فصلت بضمير فصل، وتشابهت مواضيع انتشارها شديدًا مع مواضيع الآيات التي ختمت بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إلا أن دلالة هذه الآيات استدعت تأكيدًا أشد، شمل اسم (إن)، وهذه الآيات مقيمة على مواضيعها هي:

دخول (إن) والخبر جملة اسمية، أو وجود ضمير فصل	
استغفار الأنبياء	قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [٢]
صغير ذنوب الأنبياء	قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [٣]
عظيم الذنب	قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [٤]
التأكيد على رحمة الله	قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [٥]

(١) النحو الوافي- عباس حسن (١٣٩٨هـ)، الناشر: دار المعارف: الطبعة الخامسة عشرة/ ١- ٢٤٤٨.

(٢) يوسف: ٩٨.

(٣) القصص: ١٦.

(٤) الزمر: ٥٣.

(٥) الحجر: ٤٩.

وغفرانه بشكل عام	قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ (١)

٢- ٢-٣-١ استغفار الأنبياء، ومنه استغفار يعقوب لأبنائه في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ (٢)

أكدت الآية على المغفرة بدخول (إن) على الجملة الاسمية ورفع خبرها، وهو المغفرة والرحمة(٣)، والفصل بضمير الشأن يؤكد أن الغفور هو الله، ويخص الله سبحانه وتعالى بالرحمة دون من سواه، وذكرت في مطلب سابق استغفار الرسول ﷺ واستغفار سيدنا ابراهيم عليه السلام، وقد ختمت الآيات في هذه الحالات بالتأكيد على المغفرة، دون فصل بضمير الشأن، وربما استغفار سيدنا يعقوب عليه السلام لأبنائه يحتاج إلى توكيد أكثر، ويُعطي اسم (إن) شيئًا من التركيز الدلالي.

وهي الدلالة ذاتها في حال أعربنا ضمير الفصل مبتدأ حيث يأتي الخبر الذي هو محط الدلالة جملة اسمية ترتكز فيها الدلالة على جزئيها المبتدأ والخبر، ويتوزع الثقل الدلالي فيها مناصفة مما يعطي الضمير الذي يدل على اسم (إن) ذاته جزءًا من الدلالة.

---

(١) الشورى: ٥.

(٢) يوسف: ٩٨.

(٣) ذكر المفسرون في تأجيل الاستغفار من يعقوب عليه السلام عدة آراء منها:

التخريج المأثور، وهو أنه كان يريد أن يتحرى مظان الإجابة؛ فأخر الاستغفار لهم إلى أفضل أوقاته.

ومنها: أنه كان يريد أن يضمن عفو يوسف عنهم؛ ليقع الاستغفار موقع القبول، فأجله انتظارًا للقاء يوسف عليه السلام.

ومنها: أنه كان يريد إشراك يوسف عليه السلام في الاستغفار لهم، فأجله انتظارًا للقاء يوسف.

ويُحتمل تخريج آخر أيضًا، وهو أن يعقوب عليه السلام أراد تأديب وتهذيب أولاده روحيًّا، فوعدهم بالاستغفار ولم يبادر إليه؛ ليكونوا أكثر استشعارا للذَّنب، وندمًا على الخطيئة، وكي لا يستسهلوا القضية، فإنه إذا بادر إلى الاستغفار أَثَّر ذلك في تهدئة خواطرهم، وتسكين مشاعرهم بالذنب بحكم منزلته من الله عز وجل، وكونه نبيًّا مستجاب الدعوة، فأراد أن يصقلهم روحيًّا بهذا التأخير.

٢-٢-٣-٢ صغير ذنوب الأنبياء:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ (١).

وهي في استغفار موسى عليه السلام لوكزه الرجل وقتله، ولم يُؤذن له بالقتل؛ قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ (٢).

وقد ذكرت في المطلب السابق التعريض بذنوب الأنبياء في قوله تعالى: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (٣)، وفيها تعريض بذنب موسى عليه السلام، إلا أنها في هذا الموضع تناولت الموضوع تفصيلًا، وطلب موسى الاستغفار؛ فجاءت المغفرة والرحمة خبر (إن) مرفوع مفصول بضمير الشأن، وهو أبلغ في التوكيد، وينقل جزءًا من الثقل الدلالي إلى اسم (إن)، أو أن يكون الخبر جمله اسمية دلالة المبتدأ فيه هي نفسها دلالة اسم (إن)، وبما أن الجملة الاسمية المجردة عن دخول (كان) و(إن) يتوزع الثقل الدلالي فيها على كل مِن المبتدأ والخبر فإن الثقل الدلالي ينتقل جزء منه إلى اسم (إن).

٢-٢-٣-٣ عظيم الذنب:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (٤).

وهي في جميع مَن أسرف على نفسه؛ لأن الله عمَّ بقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ

(١) القصص: ١٦.
(٢) القصص: ١٥- ١٦.
(٣) النمل: ١١.
(٤) الزمر: ٥٣.

أَنفُسِهِمْ﴾، فلم يخصص به مسرفًا دون مسرف[1].

ويقول الرازي: «إن قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يُفيد الحصر، ومعناه: أنه لا غفور ولا رحيم إلا هو»[2]، فأكد سبحانه في خبر (إن)، وهو محط الدلالة على غفرانه ورحمته وعلى أنه الغفور.

ومما يُلتفت إليه أن قوله سبحانه: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: رحمتي؛ لأن قولنا: الله أعظم أسماء الله وأجلها، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل.

كما أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولم يقل (إنه)؛ بل أعاد اسم الله، وقرن به لفظة (إن) المفيدة للتوكيد.

وكل ذلك يدل على المبالغة في الوعد أنه وصف نفسه بقوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ إشارة إلى إزالة موجبات العقاب، وتحصيل موجبات الرحمة والثواب[3].

وكما هو في المثالين السابقين، فإن ضمير الفصل يسحب جزءًا من الدلالة إلى اسم (إن)؛ (الضمير المتصل)، أو أن يعرب مبتدأ مساويًا في دلالته اسم (إن)، والمبتدأ في الجملة المجردة من (إن) و(كان) يتقاسم الدلالة مع الخبر، فتؤدي الى النتيجة ذاتها.

وعَقَّب آيات كثيرة بالمغفرة والرحمة لصغير الذنوب وكبيرها؛ فجاءت صغيرها جملة اسمية مجردة عن دخول (إن) وجاءت في كبيرها مؤكدة على المغفرة والرحمة، وذلك بتصديرها بـ(إن)، إلا أن في هذه الآية جاءت عامة شاملة في الذنوب جميعها، فاحتاجت إلى توكيد أشد، فجاءت مفصولة بضمير الشأن أو خبرها جملة اسمية.

(١) تحدث المفسرون عن وجوب التوبة أولًا في معرض هذه الآية، كما تحدثوا عن الذنوب التي تغفر والتي لا تغفر، ولا أرى وجوبًا لذلك، فالآية عامة، وسياق الآيات يُوضح المقصود في حث المسرفين على عدم القنوط من رحمة الله بشكل عام.

(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ٤٦٥.

(٣) المصدر السابق.

٢-٢-٣-٤ التأكيد على أن رحمة الله وغفرانه بشكل عام:

وهو قريب من المطلب الأخير في الفصل السابق إلا أنه في هذا المطلب أكثر تأكيدًا؛ لكون الخبر جملة اسمية مبتدأها ضمير يعود لله عزوجل.

٢-٢-٣-٤-١ قوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [(١)].

والسورة من بدايتها تحدثت عن الأمم السابقة وإهلاكهم بكفرهم، وخلق السماوات والأرض والإنسان واستكبار إبليس، وجزاء مَن يتبعه، وأجر المتقين، ثم أكد سبحانه وتعالى مغفرته ورحمته وحصرها به بالضمير (أنا) مُؤكدًا على أنه هو الغفور، وإن أعرب الضمير (إن) اسمًا في جملة اسمية هي خبر (كان)، فالمعنى واحد؛ حيث تقتسم الدلالة مع الخبر؛ لتجردها من دخول (كان) و(إن)، ثم أتبعها سبحانه بقوله: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [(٢)] ببناء الجملة ذاته، فهي في بيان سنة الله في الكون ومنهجه، والجدير ذكره أن ضمير الفصل في معنى الرحمة عائد له سبحانه وتعالى: (أنا)، وهو في معنى العذاب عائد للعذاب، فنَسب سبحانه الرحمة لنفسه، ويتضح التوكيد- أيضًا- في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ ، وهو توكيد على وجوب الإخبار.

٢-٢-٣-٤-٢ قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [(٣)].

والمقصود من (ألا) التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للبشر إلا أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى، ولذلك جاء الخبر الذي محط الدلالة جملة اسمية توزع فيها الثقل الدلالي على كل من لفظ الجلالة والمغفرة، وإذا ما اعتبرنا (هو) ضمير فصل فقد جاء مؤكدا لاسم (إن) حاصرًا معنى اسم (إن) في خبرها.

(١) الحجر: ٤٩.

(٢) الحجر: ٥٠.

(٣) الشورى: ٥.

٢-٢-٤ دخول (كان) على الجملة الاسمية:

ومن الجيد في بداية هذا المطلب أن نُعرج على معنى (كان)، **وربما جمع الزجاج أوجه دلالتها في ثلاثة أوجه:**

الأول: كان قبل أن خلق الخلق موصوفًا بهذه الصفة.

الثاني: أنه قال: {كَانَ}، مع أن جميع العباد بهذه الصفة، والمقصود: بيان أن هذه عادة الله تعالى أجراها في حق خلقه.

الثالث: لو قال: إنه تعالى عفو غفور- كان هذا إخبارًا عن كونه كذلك فقط، ولما قال: إنه كان كذلك كان هذا إخبارًا وقع مخبره على وفقه، فكان ذلك أدل على كونه صدقًا وحقًّا ومبرأ عن الخلف والكذب(١).

والحقيقة: أن الزجاج في الرأي الأخير الذي ذكره اقترب كثيرًا مما نريد تقريره في هذا البحث من معنى (كان) وما فيها من توكيد لدلالة اسمها.

وللتدليل على ذلك وبالتقابل مع (إن) أعرض للآيات التي ختمت بـ(كان الله غفورًا رحيمًا) في محاولة لاستكناه المعنى الدقيق المرجو من زيادة (كان).

ويلاحظ أن النماذج تحت هذا المطلب أقل بكثير من نماذج في المطلب الخاص بدخول (إن)، وربما اقتربت هذه النماذج في عددها من النماذج التي تجردت عن دخول (إن) و(كان)، ويمكن إدراج هذه النماذج تحت المواضيع التالية:

(١) تفسير الرازي١١/ ١٩٧- ١٩٨.

دخول كان على الجملة الاسمية	
ترك عظيم الأمور؛ كالجهاد والهجرة مع وجود أهل العذر ممن استثناهم الله	قوله تعالى: ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)
نكث البيعة	قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾ (٢)
الهجرة	قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٣)
أحكام شرعية فيها حرج كبير	قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٤)
	قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ

(١) النساء: ٩٦.

(٢) الفتح: ١٤.

(٣) النساء: ١٠٠.

(٤) الأحزاب: ٥.

	أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ (١)
	قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ (٢)
بيان الثواب والعقاب، وترجيح رحمة الله وغفرانه	قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ (٣)
	قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٣﴾ (٤)
	قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ (٥)

٢-٢-٤-١ ترك الجهاد:

قال تعالى: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٩٦﴾ (٦).

وهذه الآية جاءت عقب الحديث عن تفضيل المجاهدين على القاعدين عن الجهاد: قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ

(١) الأحزاب: ٥٠.
(٢) الأحزاب: ٥٩.
(٣) النساء: ١٥٢.
(٤) الأحزاب: ٧٣.
(٥) الفرقان: ٧٠.
(٦) النساء: ٩٦.

ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ (١).

وذكر معظم المفسرين روايات تتعلق بسبب نزول هذه الآية، منها: ما ذكره الطبري يقول: «حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: «لما نزلت: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جاء ابنُ أمِّ مكتوم وكان أعمى، فقال: يا رسول الله، كيف وأنا أعمى؟ فما برح حتى نزلت: ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ »(٢)، وجميع الرويات الأخرى تدور حول هذه الرواية سواء عند الطبري أو غيره من المفسرين.

والله سبحانه وتعالى هو العالم بمن قَعَد عن الجهاد بعذر أو بغير عذر، ولذلك جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ حيث يرتكز الثقل الدلالي على لفظ الجلالة، فالله الغفور لمن فرط منهم بالقعود عن الجهاد، رحِيم بما وعد لهم من الحسنى.

٢-٢-٤-٢ نكث البيعة:

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ (٣).

وجاءت هذه الآية عقب قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمُۢا بُورٗا ﴿١٢﴾﴾ ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ

(١) النساء: ٩٥.

(٢) تفسير الطبري/ ٧- ٣٦٦.

(٣) الفتح: ١٤.

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ [1]، وهي في بيعة الرضوان في الحديبية، وفي الآيات أمور لا يعلمها إلا الله تتعلق بحقيقة إيمان المبايعين، ووفائهم بالبيعة، وسبحانه وحده يعلم ما في قلوبهم وما تقوله ألسنتهم، ولذلك ألحق سبحانه وتعالى بالآيات التي بَيَّن فيها أجر المبايعين الموفيين بعهودهم، وفضح فيها ما في قلوب المتخلفين من سوء ظَنٍّ- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ [2]، فالملك لله اختص نفسه به، وقدم اسمه سبحانه فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ﴾، ولم يقل: الملك لله، زيادة في الاختصاص، والغفران بمشيئته، والعذاب بمشيئته، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل [3]، ومن عظم ملكه يكون أجره وهبته في غاية العظم وعذابه وعقوبته كذلك في غاية النكال والألم [4]، ولذلك جاء محط الدلالة في خاتمة الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لفظ الجلالة، فالغفور هو الله.

٢-٢-٤-٣ قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [5].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: ﴿غَفُورًا﴾ لما سلف من ذنوبه، ﴿رَّحِيمًا﴾ بوقوع أجره عليه ومكافأته على هجرته ونيته [6]، وبما أن الأمر متعلق بالنية خُتمت الآية بـ(كان الله غفورًا رحيمًا)، وارتكزت الدلالة على لفظ الجلالة باعتباره المرفوع.

٢-٢-٤-٤ حكم شرعي فيه حرج كبير:

ويلاحظ على الأحكام التي ختمت بالتركيز على أن لفظ الجلالة: أنها أحكام تتعلق

(١) الفتح: ١٠- ١٣.

(٢) الفتح: ١٤.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٥.

(٤) تفسير الزمخشري ٤/ ٣٣٧.

(٥) النساء: ١٠٠.

(٦) البحر المحيط ٤/ ٤٥.

بأمور اجتماعية؛ كالزواج والنَّسب والحِجاب، والتي قد يقع فيها شيء من الحرج.

٢-٢-٤-٤-١ قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ (١).

فلو نسبه إنسان إلى أبيه من التبنّي فإن كان على جهة الخطأ، وهو أن يسبق لسانه إلى ذلك من غير قصد فلا إثم ولا مؤاخذة، وكذلك لو دعوت رجلًا إلى غير أبيه- وأنت ترى أنه أبوه- فليس عليك بأس، فإن قاله أحد متعمّدًا عصى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾، وعليه جناح، ولذلك قال بعده: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: أن الله سبحانه غَفُور للعمد، ورَحِيم برفع إثم الخطأ، فالخطأ وما تعمدت القلوب أمور لا يعلمها إلا الله، وعليه ختمت الآية بـ(كان الله)، ولفظ الجلالة المرفوع محط الدلالة ومقصدها.

٢-٢-٤-٤-٢ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ (٢).

فلفظ الجلالة (الله) مقصد الدلالة؛ فالله هو الغفور الرحيم الذي يعلم ما فرض على نبيه وعلى المؤمنين في هذه القضية الشائكة، وشملهم في رحمته وغفرانه بعدها.

٢-٢-٤-٤-٣ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ

(١) الأحزاب: ٥.

(٢) الأحزاب: ٥٠.

عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ (١).

يقول الطبري: «حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء، جميعًا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ : يتجلببن؛ فيُعلم أنهنَّ حرائر، فلا يَعرض لهنَّ فاسق بأذى مِن قول ولا ريبة»(٢).

أرجع الله غفرانه إليه؛ فرفع لفظ الجلالة، فسبحانه يغفر ما قد سلف، ويُثيب على الآتي برحمته(٣).

وربما كان في كيفية وضع الحجاب شيء من الحرج مَرجوعه إلى الله سبحانه وتعالى بالمغفرة والرحمة.

٢-٢-٤-٥ بيان الثواب والعقاب، وترجيح رحمة الله وغفرانه بفضله:

٢-٢-٤-٥-١ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ (٤).

وسبقها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ (٥).

فبعد بيانه سبحانه لعقوبة الكافرين بالله ورسله وثواب المؤمنين- غلب غفرانه ورحمته، فهو الغفور يَغفر لِمَن فعل ذلك من خلقه ما سلف له من آثامه؛ فيستر عليه بعفوه له عنه،

(١) الأحزاب: ٥٩.

(٢) الطبري/ ١٩- ١٨٢.

(٣) الزمخشري/ ٣- ٥٥٩، الرازي/ ٢٥- ١٨٤.

(٤) النساء: ١٥٢.

(٥) النساء: ١٥٠- ١٥١.

وتركه العقوبة عليه، رحيمًا بتفضله عليهم بالهداية إلى سبيل الحقِّ، وتوفيقه إياهم لما فيه خلاصُ رقابهم من النار[١].

٢-٢-٤-٥-٢ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٣][٢].

وهي آخر آية في سور الأحزاب، وكسابقتها بينت عقوبة المنافقين والمشركين، وتوبة الله على المؤمنين، وترجيح غفران الله رحمته بأمره.

٢-٢-٤-٥-٣ قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[٣].

سبقها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾.

ثم رجح الله سبحانه وتعالى مغفرته بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ، وهذه الجملة مقرِّرة لما قبلها من التبديل؛ فالله سبحانه وتعالى هو مَن يُبَدِّل سيئاتهم حسنات.

٢-٢-٥ دخول (إن) على جملة اسمية مصدرة بـ(كان):

في الآيات التي ورد خبر (إن) فيها جملة اسمية مصدرة بـ(كان) نجد أن الثقل الدلالي يرتكز على الجملة الاسمية المصدرة بـ(كان)، والتي هي في ذاتها تحوي مبتدأ وخبرًا يرتكز الثقل الدلالي على المرفوع منهما، وهو المبتدأ، والذي يُوافق اسم (إن) في دلالته، وعليه يأخذ اسم

(١) انظر تفسير الطبري/ ٧- ٦٣٨.

(٢) الأحزاب: ٧٢- ٧٣.

(٣) الفرقان: ٧٠.

(إن) جزءا كبيرًا من الدلالة، وجاءت هذه الخواتيم في سياق المواضيع التالية:

دخول (إن) على جملة اسمية مصدرة بـ(كان)	
في عتاب النبي ﷺ	قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ (١)
التأكيد على رحمته وغفرانه المطلق	قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ (٢)
فيما يتعلق بالحديث عن المعارك الشديدة، وأحوال الخلق بين منافق ومؤمن	قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ (٣)
آيات ورد فيها أحكام شرعية شديدة الحساسية	قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ (٤)
	قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ

(١) النساء: ١٠٦.

(٢) الفرقان: ٦.

(٣) الأحزاب: ٢٤.

(٤) النساء: ٢٣.

فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ (١)	

٢-٢-٥-١ في عتاب النبي النبي ﷺ:

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ (٢) جاءت في سياق معاتبته سبحانه وتعالى نبيه في شأن طعمة بن أبيرق، «وفيما هَمَّ به نبيُّ الله ﷺ من عذره، وبَيَّن الله شأن طعمة بن أبيرق، ووعظ نبيه ﷺ وحذَّره أن يكون للخائنين خصيمًا. وكان طعمة بن أبيرق رجلًا من الأنصار، ثم أحد بني ظَفَر، سرق درعًا لعمه كانت وديعة عنده، ثم قذفها على يهوديٍّ كان يغشاهم، يقال له: زيد بن السمين، فجاء اليهودي إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم يَهتف، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبيّ الله ﷺ ليعذروا صاحبهم، وكان نبيُّ الله عليه الصلاة والسلام قد همَّ بعُذره، وربما كان سبب هذا الهم عَدم عِلمه صلى الله عليه وسلم حقيقة الأمر، فما كان لرسول الله ﷺ أن يظلم أحدًا حتى أنزل الله سبحانه وتعالى قوله(٣): ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ

(١) النساء: ١٢٩.

(٢) النساء: ١٠٦.

(٣) اتفقت التفاسير على أن هذه الحادثة هي مناسبة الآية.

﴿ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ (١).

ويتضح من سياق الآيات التشديد الواضح على الأمر واستعظامه؛ خاصة أنه يتعلق برسول الله ﷺ شخصًّيا، وعليه جاءت الخاتمة في الصورة الأشد توكيدًا على رحمته ومغفرته سبحانه، فجاء خبر (إن) الذي هو مقصد الدلالة على صورة جملة اسمية مصدرة بـ(كان) وبما أن في (كان) معنى توكيد اسمها المرفوع، وهو ضمير مستتر في هذه الآية، تقديره: (هو)، فالآية في أكثر حالات التوكيد على رحمة الله وغفرانه وأنه مَن يغفر، وهو متعلق بعلمه سبحانه بما في قلب نبيه وعدم علمه بالأمر.

وقد بينا- سابقًا- أن التأكيد على أن الله مَن يرحم جاء في القضايا والأحكام التي يستشكل فيها الأمر ولا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

وفي المطلب الأول جاء قوله تعالى في سورة التحريم: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ (٢)- جملة اسمية من غير دخول (كان) أو (إن)، فلأن الأمر لا يحتاج إلى توكيد، وتشديده سبحانه على ما ورد في سورة التحريم أقل مما هو في سورة النساء، وهذا واضح من سياق الآيات.

وفي المطلب الثاني عرض سبحانه بذنب موسى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (٣)، وختم الآية بقوله: ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مؤكدًا على المغفرة.

وفي المطلب الثالث ذكر سبحانه من صغير ذنوب الرسل: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ (٤)، وختم الآية بجملة اسمية، وهي أشد

(١) النساء: ١٠٥- ١١٣.

(٢) التحريم: ١.

(٣) النمل: ١١.

(٤) القصص: ١٦.

تأكيدًا من الحالة السابقة، وهذا يُؤكد ما أذهب إليه في هذا البحث[١].

٢-٢-٥-٢ التأكيد على رحمة الله وغفرانه مهما عظم الأمر:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [٢].

وسبقها آيات تحدثت عن عظيم ذنبهم من كفر وكذب وافتراء؛ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾[٣]، ثم بين سبحانه أنه من أنزل الكتاب، وأنه يعلم السر، وختمها بتأكيد رحمته وغفرانه بأشد حالات التوكيد، فجاء خبر (إن) جملة اسمية مصدرة بـ(كان)، أضف إلى ما في جملة (كان) من توكيد على اسمها، وهو لفظ الجلالة، وجاءت الخاتمة متناسبة مع ما قَرَّره سبحانه من علمه السر، فجاءت الخاتمة مؤكدة على أن سبحانه هو مَن يرحم، ويُوضح الزمخشري مطابقة معاني الآيات لخاتمة الآية: قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ، يقول: «فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا المعنى؟

قلت: لما كان ما تقدَّمه في معنى الوعيد عَقبه بما يدل على القدرة عليه؛ لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يُصب عليهم العذاب صبًّا، ولكن صرف ذلك عنهم؛ إنه غفور رحيم، يُمهل ولا يُعاجل»[٤].

---

(١) سبب اختلاف المفسرين في موضوع عصمة الأنبياء اختلاف في توجيه الآيات بما يتناسب مع معتقداتهم؛ فعَدَّه بعضهم من صغير الذنوب، ولذلك أمر سبحانه نبيه بالاستغفار عنه، وذهب بعضهم إلى أنه ليس بذنب؛ لأن رسول الله لم يكن يعلم، والمعنى: استغفر للمذنبين من أمتك، وذهب آخرون إلى أنه استغفار عن الميل القلبي، ومنهم مَن أخذها على معنى التسبيح، بمعنى: اذكر الله، وأُرَجِّح أنه استغفار عن الميل القلبي، والله أعلم.

(٢) الفرقان: ٦.

(٣) الفرقان: ٣- ٥.

(٤) تفسير الزمخشري ٣/ ٢٦٥.

ويقول الرازي: «إنما ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع لوجهين:

الأول: قال أبو مسلم: المعنى: أنه إنما أنزله لأجل الإنذار، فوجب أن يكون غفورًا رحيمًا غير مستعجل في العقوبة.

الثاني: أنه تنبيه على أنهم استوجبوا بمكايدتهم هذه أن يُصب عليهم العذاب صبًّا، ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفورًا رحيمًا يمهل ولا يعجل»(١).

فسبحانه مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم يدعوهم إلى التوبة، والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، ويؤكد لهم إمكانية مغفرته لهم تأكيدًا شديدًا مهما عظمت ذنوبهم.

وإذا ما استرجعنا ما ورد في ختام الآيات نجد أنَّه كلما عظم الذنب أكد سبحانه وتعالى على مغفرته أكثر، في حين أكد على أنه هو الغفور في الأمور التي فيها شيء من الحرج، والأمر فيها مرجئ لله سبحانه وتعالى، وهي قليلة العدد بالنسبة لدخول (إن)، وربما اقتربت في عددها من الخاتمة المجردة عن دخول (كان) و(إن)، وجاءت الخاتمة في هذا المطلب مؤكدة على المغفرة، وعلى أن الله مَن يغفر، وهي في أشد حالات التوكيد.

٢-٢-٥-٣ فيما يتعلق بالحروب:

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾(٢)، وردت هذه الآية في سياق الحديث عن غزوة الأحزاب، والتي افتتحت بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾(٣)، وتحدثت في الآية التاسعة وما تليها عن البلاء الشديد الذي حَلَّ بالمؤمنين، ورحمة الله بهم بإرساله ريحًا وجنودًا؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٤٣٤.

(٢) الأحزاب: ٢٤.

(٣) الأحزاب: ١.

إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [1]، وحديثه عن المنافقين والمتخلفين؛ يقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٠﴾ [2]، ثم عن المؤمنين الصادقين الذين استأسوا بالرسول يقول جل وعلا: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [3]، ثم يبين سبحانه حكمه بقوله: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٤﴾ [4]، فيجزي الصادقين، ويعذب المنافقين أو يتوب عليهم؛ فالله هو الغفور الرحيم، وهي الدلالة

(١) الأحزاب: ٩- ١١.

(٢) الأحزاب: ١٣- ٢٠.

(٣) الأحزاب: ٢١- ٢٣.

(٤) الأحزاب: ٢٤.

المقصودة والمتحصلة من خبر (إن) المرفوع محلًّا: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ واسم (كان) والتي ترتكز عليه دلالة الجملة.

٢-٢-٥-٤ آيات ورد فيها أحكام شرعية خاصة جدًّا:

تناولنا في المباحث السابقة آيات وردت فيها أحكام شرعية فيها شيء من الحرج ختمت بـ(الله غفور رحيم)، وأحكام فيها حرج كبير ختمت بـ(كان الله غفورًا رحيمًا)، وفي هذا المحور ختمت الآيات بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ؛ لما في هذه الأحكام من حساسية بسبب الخصوصية الشديدة لهذه الأحكام.

٢-٢-٥-٤-١ قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ (١).

فأكد سبحانه مغفرته لما سلف، وجاء الخبر والذي هو محط الدلالة جملة اسمية مصدرة بـ(كان) ارتكز ثقل الدلالة فيها على اسمها لعظم آية التحريم وخصوصيتها وملابساتها.

٢-٢-٥-٤-٢ قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٢).

والمغفرة هنا حسب أقوال المفسرين على معنى: وَإِنْ تُصْلِحُوا مَا مَضَى مِنْ مَيْلِكُمْ وَتَتَدَارَكُوهُ بِالتَّوْبَةِ، وَتَتَّقُوا فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَنْ مِثْلِهِ- غفر اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ، وربما كان المعنى: وَإِنْ تُصْلِحُوا بِالْعَدْلِ فِي الْقَسْمِ، وَتَتَّقُوا الْجَوْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُورًا رَحِيمًا مَا حَصَلَ فِي الْقَلْبِ مِنَ

(١) النساء: ٢٣.

(٢) النساء: ١٢٩.

الْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ الْبَعْضِ، وهذا يدخل بما هو فوق الطاقة[١].

ورجح الرازي القول الأول مستدلًّا بأن التَّفَاوُتَ فِي الْمَيْلِ الْقَلْبِيِّ لَمَّا كَانَ خَارِجًا عَنِ الْوُسْعِ لَمْ يَكُنْ فِيهِ حَاجَةٌ إِلَى الْمَغْفِرَة، وأيًّا كان المعنى فقد أكد سبحانه مغفرته في هذه القضية المربكة والشائكة بأقصى حالات التوكيد، وهو مجيء خبر (إن) جملة اسمية مصدرة بـ(كان)، والتي بدورها يرتكز فيه المعنى على اسمها (لفظ الجلالة).

وقد وردت عدة آيات ذكرتها سابقًا[٢] أوجب سبحانه فيها مغفرته لما هو فوق الطاقة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ ، إلا أن هذه الآية ربما كانت أشد حساسية من سابقتها.

(١) ذكرت هذه المعني معظم التفاسير.

(٢) تفسير الرازي/ ١١- ٢٣٧.

الخاتمة:

اعتل اللغويون لنصب خبر (كان) واسم (إن) بعلل مبدئية وأخرى ثانوية، دارت في نطاق نظرية العامل، والتي طغت على الفكر النحوي بشكل كبير.

وافترضت في هذا البحث أن تكون العلة في نَصب ما نُصب بعد دخول (كان) و(إن) على الجملة الاسمية هو تسليط الضوء على المرفوع باعتباره محط الدلالة، واختبرت هذه الفرضية نظريًّا وعمليًّا، أما الجزء النظري فهو بعرض تعليلات العلماء في هذه المسألة خاصة، وفي مسألة التعليل النحوي بشكل عام، كتسمية خبر (كان) حالًا عند الكوفيين، واعتبار العلماء المرفوع عمدة، ونصب ركني الجملة الاسمية عند دخول فعل الظن، ونقل حركة الفاعل للمفعول في الفعل المبني للمجهول.

أضف إلى ذلك آراء العلماء كاعتبار فندريس أنَّ فعل الكون ليس له علاقة بالجملة الفعلية، أو اعتبار إبراهيم مصطفى النصب ليس علامة إعرابية.

وغيرها كاختلافهم في (ليس) و(صار) و(عسى) و(كاد)، والتي تحدثت عنها تفصيلًا في البحث.

ثم عمدت إلى استقراء نماذج من القرآن الكريم لدخول (كان) و(إن) على الجملة الاسمية (غفور رحيم) نموذجًا، ودخول (كان) و(إن) عليها، ومحاولة دراسة أثر اختلاف العلامات الإعرابية في الدلالة، **فخلصت إلى النتائج التالية:**

- عدم قبول تشبيه النحاة لـ(كان) وأخواتها و(إن) وأخواتها بالأفعال الحقيقية، وما ترتب عليه من تعليلات ثانوية؛ كقولهم: إنه لو رفعنا خبر (إن) لاشتبهت بالفعل، وهذا الاشتباه يؤدي إلى إمكانية إضمار الفعل تشبيهًا بالفاعل، وإمكانية اتصاله بتاء المخاطب فتكون (إنت)! أو اعتلالهم بأنها خالفت الفعل في عمل ما بعدها للدلالة على حرفيتها.
- النظر إلى هذه الأفعال والحروف نظرة خاصة من وجهة دلالية، والاستغناء عن محاولة سحبها على غيرها.

• تقرير أنَّ المرفوع هو غاية الدلالة المنشودة، وعليه نصب ما هو أقل أهمية، وهذا ما أفضى له البحث التطبيقي، كما نصب منصوبي أفعال الظن، وعلى النقيض رفع المفعول به للفعل المبني للمجهول نيابة عن الفاعل.

• تناسبت خواتيم الآيات مع فرضية البحث من الناحية الدلالية، وهذا يؤكد صحتها، فختمت الآيات التي تخبر أن الله مَن يغفر، وعلى المغفرة والرحمة على حد سواء بجملة اسمية اسمها لفظ الجلالة، أو ما ينوب مكانه وخبرها.

وختمت الآيات التي تركز على المغفرة بجملة اسمية مصدرة بـ(إن) وخبرها المغفرة والرحمة، وجاء بعضها مفصولًا بين اسمها وخبرها بضمير الفصل، أو يمكن اعتبار ضمير الفصل مبتدأ، وعليه فخبر (إن) جملة اسمية، اسمها في دلالته هو عين اسم (إن)، وعليه انتقل شيء من الثقل الدلالي للخبر للمبتدأ، وهي في الآيات التي احتاجت إلى توكيد أكثر مما دخلت عليه (إن) فقط.

وربما كان هذا النوع من الجمل هو النظير المؤكد للجملة الاسمية مجردة من (كان) و(إن)، فأكد جزأيها، وربما مالت إلى تأكيد أن المغفرة من الله أكثر بقليل من التأكيد على المغفرة نفسها.

وختمت الآيات التي ركزت في دلالتها على أن مَن يغفر هو الله بـ(كان الله غفورًا رحيمًا)، وختمت ما هي أشد توكيدًا بـ(إن الله كان غفورًا رحيمًا)- أو إنه- وهي مُؤَكِّدة أن الله هو الغفور، باعتبار أن ثقل الدلالة في الجملة الاسمية التي هي خبر (إن) ترتكز فيه الدلالة على اسم (كان).

شكل الجملة	الثقل الدلالي مع نسبة مئوية مفترضة
مجردة عن (كان) و(إن)	الثقل الدلالي يتوزع على كل من المبتدأ لفظ الجلالة أو ضميره (٥٠%)، والخبر وهو المغفرة والرحمة (٥٠%).
دخول (إن) على الجملة الاسمية	الثقل الدلالي في اسم (إن) (٢٥%)، وفي خبر (إن): المغفرة والرحمة (٧٥%)
دخول (إن) على جمل اسمية فصل بين اسمها وخبرها بضمير الشأن، أو أن يكون خبرها جملة اسمية اسمها ضمير يعود على لفظ الجلالة، وخبرها: المغفرة والرحمة	الثقل الدلالي في اسم (إن): (٢٥%)، ويمكن إعطاء نسبة (٢٥%) لضمير الفصل، و(٥٠%) للخبر، أو إذا أعربنا الخبر جملة اسمية فإنه يأخذ من ثقل الثقل الدلالي (٧٥%)، ويتوزع على كل من المبتدأ (٥٠ %)، والخبر (٥٠ %)، وذلك من النسبة الأصلية ٧٥%[١].
دخول (كان) على الجملة الاسمية	الثقل الدلالي في اسم (كان) لفظ الجلالة (٧٥%)، وفي خبرها (٢٥%)
دخول (إن) على جملة اسمية، خبرها جملة اسمية مصدرة بـ(كان)	الثقل الدلالي في اسم (إن) (٢٥%)، وفي الجملة الاسمية المصدرة بـ(كان) (٧٥ %)، والتي يرتكز فيها ثقل الدلالة على لفظ الجلالة أو ما ينوب مكانه ضميرًا ظاهرًا أو مستترًا (٧٥ %)، وعلى الخبر بنسبة (٢٥%) من النسبة الأصلية لجملة (كان).

(١) وعليه، فإن إعراب الضمير: ضمير فصل يزيد مِن نسبة الدلالة لاسم (إن)؛ لتتساوى مع الخبر في حين إعراب الضمير اسمًا للجملة الإسمية التي هي خبر (إن)، يعطي الضمير نصيبًا أكبر من الدلالة لتفوق دلالة أن الله هو الغفور دلالة المغفرة نفسها، والله أعلم.

المصادر والمراجع

- أحمد سليمان ياقوت- **ظاهرة الإعراب**- دار المعرفة الجامعية- بيروت.
- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني؛ أبو بكر البيهقي (٤٥٨هـ)- **السنن الكبرى**- تحقيق: مُحَمَّد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة- ٢٠٠٣م.
- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي؛ أبو الحسين- **مقاييس اللغة**- (٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون- دار الفكر، عام النشر ١٩٧٩م.
- ابن كثير، أبو الفداء؛ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، (٧٧٤هـ)- **تفسير القرآن العظيم**- تحقيق: مُحَمَّد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية، منشورات مُحَمَّد علي بيضون- بيروت- الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (١٠٩٤هـ)- **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**- المحقق: عدنان درويش- مُحَمَّد المصري- مؤسسة الرسالة- بيروت.
- براجستر- **التطور النحوي للغة العربية**- ترجمة: رمضان عبد التواب- مكتبة الخانجي- ١٩٩٤م.
- تقي الدين، أبو العباس؛ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، (٧٢٨هـ)- **مجموع الفتاوى**- المحقق: عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن قاسم- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية- ١٤١٦هـ.
- تمام حَسَّان- **الأصول: (دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب)**- عالم الكتب- ٢٠٠٠.
- تمام حسان- **مناهج البحث في اللغة**- مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠.

● جمال الدين بن هشام الأنصاري، (٧٦١هـ)- **أوضح المسالك إلى ألفيَّة ابن مالك**- تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان، الطبعة الخامسة، ١٩٦٦م.

● جلال الدين السيوطي- **المطالع السعيدة في شرح الفريدة -في النحو والصرف والخط**- تحقيق: نبهان ياسين حسين- الجامعة المستنصرية- العراق- ١٩٧٧.

● ابن مالك؛ جمال الدين، مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الله الطائي الجياني الأندلسي، (٦٧٢هـ)- **التسهيل**- تحقيق: الدكتور عبد الرحمن السيد- الدكتور مُحَمَّد بدوي المختون.

● جليس الدينوري، (ت٤٩٠ هـ)- **ثمار الصناعة في علم العربية**- تحقيق ودراسة: الدكتور مُحَمَّد بن خالد الفاضل- جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية.

● خليل عمايرة- **المسافة بين النظرية والتطبيق-** دار وائل للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م- عمان- الأردن.

● **دراسات في النحو العربي وتطبيقاتها**، لعاطف أبو جناح، دار الفكر: الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.

● أبو القاسم الزجاجي، (٣٣٧هـ)- **الإيضاح في علل النحو**- تحقيق: مازن مبارك- دار النفائس- ١٩٩٨.

● زين الدين مُحَمَّد المدعو (١٠٣١هـ)- **التوقيف على مهمات التعاريف**- عالم الكتب- القاهرة- الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

● شوقي ضيف- **تجديد النحو**- دار المعارف- الطبعة الرابعة.

● ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن مُحَمَّد، (٦٣٧هـ)- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**- المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة- دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- الفجالة- القاهرة.

● أبو البقاء؛ عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي، محب الدين، (٦١٦هـ)- **مسائل خلافية في النحو**- تحقيق: مُحَمَّد خير الحلواني- دار الشرق العربي- بيروت- الطبعة الأولى،١٩٩٢م.

● ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، (٧٦٩هـ)- **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**- تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد- دار التراث- القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه- الطبعة العشرون، ١٩٨٠م.

● عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي- **الاقتراح في أصول النحو**- المحقق: عبد الحكيم عطية- علاء الدين عطية- دار البيروتي- دمشق ١٤٢٧.

● أبو مُحَمَّد؛ عبد الله بن مُحَمَّد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، (٤٦٦هـ)- **سر الفصاحة**- دار الفكر- ٢٠٠٦.

● أبو الفتح؛ عثمان بن جني الموصلي، (٣٩٢هـ)- **الخصائص**- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الرابعة.

● علي أبو المكارم- **أصول التفكير النحوي**- دار غريب.

● علي أبو المكارم- **إحياء النَّحو**- الهنداوي.

● علي بن مُحَمَّد بن علي الزين الشريف الجرجاني، (٨١٦هـ)- **التعريفات**- المحقق: جماعة من العلماء- دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان- الطبعة الأولى-١٩٨٣.

● فندريس، **اللغة**- ترجمة: الدواخلي والقصاص، مكتبة الأنجلو، ١٩٥٠م.

● كمال الدين أبو البركات الأنباري، (٥٧٧هـ)- **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين**- تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد- الطبعة الرابعة، ١٩٦١م.

● مازن مبارك- **النحو العربي، العلة النحوية: نشأتها وتطورها**- دار الفكر- دمشق- ١٩٧٤م.

● أبو عبد الله؛ مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، شمس الدين القرطبي، (٦٧١هـ)- **الجامع لأحكام القرآن**- تفسير القرطبي- تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية- القاهرة- الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

● مُحَمَّد بن أحمد بن الأزهري الهروي؛ أبو منصور، (٣٧٠هـ)- **تفسير ابن عطية- تهذيب اللغة**- المحقق: مُحَمَّد عوض مرعبا- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

● مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي؛ أبو جعفر الطبري، (٣١٠هـ)- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**- تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، الدكتور عبد السند حسن يمامة- دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى- ٢٠٠١م.

● مُحَمَّد بن الحسن الإستراباذي السمنائي النجفي الرضي- **شرح الرضي لكافية ابن الحاجب**، تحقيق: حسن بن مُحَمَّد بن إبراهيم الحفظي- يحيى بشير مصطفى- جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، ١٤١٧.

● مُحَمَّد خير الحلواني- **أصول النحو العربي**- الأطلسي- الرباط، ١٩٨١.

● أبو بكر؛ مُحَمَّد بن السري بن سهل النحوي، المعروف بابن السَّرَّاج (٣١٦هـ)- **الأصول في النحو**- تحقيق: عبد الحسين الفتلي- مؤسسة الرسالة- لبنان- بيروت.

● مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله الشوكاني اليمني، (١٢٥٠هـ)- **فتح القدير**- دار ابن كثير، دار الكلم الطيب- دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤.

● أبو الحسن؛ مُحَمَّد بن عبد الله الوراق- **علل النحو**- مكتبة الرشد- الرياض، السعودية- ١٩٩٩م- الطبعة الأولى، تحقيق: محمود جاسم مُحَمَّد الدرويش.

● أبو عبد الله؛ مُحَمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي، خطيب الري، (٦٠٦هـ)- **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

● مُحَمَّد بن مكرم بن على؛ أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، (٧١١هـ)- **لسان العرب**- دار صادر- بيروت، الطبعة الثالثة-١٤١٤.

● مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطاهر بن عاشور التونسي- **التحرير والتنوير، (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**- الدار التونسية للنشر- تونس، ١٩٨٤هـ.

● أبو العباس؛ مُحَمَّد بن يزيد المبرد، (٢٨٥هـ)- **المقتضب**- تحقيق: مُحَمَّد عبد الخالق عضيمة، دار التحرير للطباعة والنشر (٢/ ٤٩، ٤/ ١٢٦).

● أبو حيان؛ مُحَمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين الأندلسي، (٧٤٥هـ)- **البحر المحيط في التفسير**- تحقيق: صدقي مُحَمَّد جميل- دار الفكر- بيروت، الطبعة ١٤٢٠هـ.

● أبو القاسم؛ محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، جار الله، (٥٣٨هـ)- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

● مهدي المخزومي-**في النحو العربي: نقده وتجديده**-دار الرائد، بيروت، الطبعة الثانية.

● ناصر الدين، أبو سعيد؛ عبد الله بن عمر بن مُحَمَّد الشيرازي البيضاوي، (٦٨٥هـ)- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**- تحقيق: مُحَمَّد عبد الرحمن المرعشلي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٨هـ.

● ياسين أبو الهيجاء- **مظاهر التجديد النحوي للغة العربية لدى مجمع اللغة العربية في القاهرة**- عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٢.